روايات عالمية للناشئة

أحزان صوفي

كونتيسه دي سيغير

RABIE

H.FARHAT

أحزان صوفي

كونتيسه دي سيغير

RABIE

23

أحزان صوفي

كونتيسه دي سيغير

صوفي فتاة تختلف عن سواها من الفتيات ، فهي واسعة الخيال ، شديدة الفضول ، تحاول ابتكار أفكار جديدة ، تضعها في مآزق صعبة . ولكنها تعلمت من هذه المآزق دروساً في الحياة ..

صدر من هذه المجموعة :

1 - الذئب الأبيض
2 - توم سوير
3 - الهندي الشجاع
4 - مذكرات حمار
5 - نداء الغابة
6 - روبنسون كروزو
7 - هايدي
8 - حكايات أندرسون
9 - عشرون ألف فرسخ تحت البحار
10 - ريمي الصغير
11 - نساء صغيرات
12 - جزيرة الكنز
13 - حول العالم في ثمانين يوماً
14 - كوخ العم توم
15 - شرلوك هولمز
16 - مغامرات الكابتن فراكاس
17 - حرب النار
18 - الحوت الأبيض
19 - كتاب الأدغال
20 - أحدب نوتردام
21 - اللورد الصغير
22 - الشيطان الصغير
23 - أحزان صوفي
24 - فتيات مثاليات

Published by Rabie Publishing House Aleppo , Syria
P.O.Box : 7381 Tel : +963 21 2640151 Fax : 2640153
E-mail : rabie@rabie-pub.com WWW.rabie-pub.com

N6A1-24



H.FARHAT

أحزان صوفي

(كونتيسه دي سيغير)

1874 -1799

ترجمة

د. محمد نديم خشفة

ذكرى حاج حسين

إشــراف : محمــد كمــال

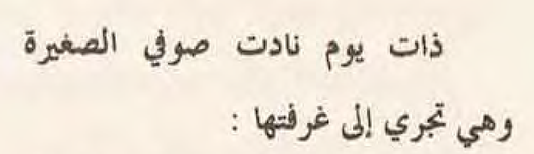
إخراج فني : م. نشوان خريط



أحزان صوفي

الفصل الأول

دمية الشمع



ذات يوم نادت صوفي الصغيرة وهي تجري إلى غرفتها :

– يا مربيتي .. يا مربيتي ! تعالي بسرعة ، يجب أن نفتح العلبة التي أرسلها إليّ أبي من باريس . أظن أنها دمية من شمع ، تلك الدمية التي وعدني بها .

المربية : أين العلبة ؟

صوفي : في الغرفة الداخلية ، أسرعي يا مربيتي !

وتركت المربية ما بيدها من أشغال الإبرة ، وتبعت صوفي إلى الغرفة الداخلية حيث وجدت العلبة ، ففتحتها فأطل منها رأس دمية

شقراء الشعر ، فجلست صوفي بقربها وأرادت أن تنــزع عنها الأوراق التي تغلفها ، فقالت المربية :

– لا تجذبي بقوة لئلا تتكسر الدمية !

وأمسكت المربية بالمقص ، ونزعت الأوراق التي تغلفها بكل عناية وتؤدة . ولا بد من القول إن صوفي فتاة صغيرة لطيفة ولكن شخصيتها قوية . ولم يكن عمرها يتجاوز في ذلك الحين الرابعة أو الخامسة . ولكنها فتاة نشيطة قوية الإرادة كما سنرى من خلال هذه القصة .

أما المربية فهي فتاة في العشرين من العمر ، تهتم بصوفي بشكل دائم كما كانت العادة لدى العائلات الغنية . وأخرجت الدمية من العلبة ونزعت عنها الأوراق وقدمتها إلى صوفي ، والتمعت عيناها بالفرح ، إذ كانت أجمل دمية حصلت عليها حتى الآن ، ذات خدين متوردين في كل منهما غمازة ، ولها عينان زرقاوان لامعتان وذراعان قويتان ، وترتدي فستاناً أزرق مطرزاً بالأبيض ، وحول خصرها حزام مذهّب ، وفي قدميها حذاء من الجلد اللامع .

طارت صوفي فرحاً ، وجعلت تقبل الدمية وهي تقفز وترقص وقد ضمتها إلى صدرها .

وسمع أصوات فرحها ابن عمها بول وهو يكبرها بعام ، فأسرع إليها . كان في زيارة لها لعدة أيام .

ونادته صوفي :

– بول .. بول ! انظر إلى الدمية الجميلة التي أرسلها أبي إليّ !

وقال بول :

– هاتيها لأراها عن قرب .

قالت صوفي وقد ضمت الدمية إلى صدرها :

– لن أعطيها لك ، فقد تكسرها .

ونشير هنا إلى أن الدمى في ذلك الزمان لم تكن مصنوعة من البلاستيك بل من الخزف أو الشمع ، فكانت سريعة الكسر ، ولكنها جميلة جداً .

قال بول الصغير :

– سأعيدها إليك حالاً .. وأؤكد لك أني لن أكسرها .

وكانت صوفي تحب ابن عمها حباً شديداً ، لذلك ناولته الدمية الجميلة .

فأمسك بول بها وقلّبها بين يديه ، ثم ردها إلى صوفي وهو يهز رأسه .

صوفي : لماذا تهز رأسك ؟ ألا تعجبك ؟

بول : بلى ! إنها جميلة جداً ولكنها هشة وأخاف أن تكسريها .

صوفي : لا تخف ! لن أكسرها ، وسأطلب من أمي أن تدعو كاميل ومادلين للغداء معنا لأريهما الدمية .

بول : أنت مخطئة ، ستكسرانها لك .

صوفي : لا .. إنهما لطيفتان جداً ولن تكسرا دميتي الجديدة .

وهز بول رأسه ولم يقتنع بكلامها . ومن الغد أمضت صوفي وقتاً طويلاً في تمشيط دميتها وتبديل ثيابها لأن صديقتيها ستأتيان لزيارتها ، ووجدت أن لونها يميل إلى الشحوب فقالت لنفسها :

– لقد أصابها البرد هذه الليلة ، وقدماها متجمدتان برداً . وسوف أعرّضها للشمس قليلاً قبل وصول كاميل ومادلين ، وستعرفان أني شديدة العناية بابنتي .

وتوجهت صوفي إلى النافذة وقد قطبت حاجبيها .

سألتها أمها السيدة (ريان) : ماذا تفعلين هنا قرب النافذة يا صوفي ؟

صوفي : سأدفئ دميتي ، لقد أصابها البرد يا ماما .

السيدة ريان : احذري يا صوفي سوف تذوب تحت أشعة الشمس .

صوفي : لا يا ماما .. لا خوف عليها فهي صلبة كالخشب .

السيدة ريان : ولكن الشمس تلينها ويصيبها بعض الأذى .. أحذرك .

ولم تسمع صوفي كلام أمها ، ومددت الدمية تحت أشعة الشمس التي كانت حارقة ذلك اليوم . وبعد قليل سُمع صوت عربة يجرها حصان ، لقد جاءت صديقتاها كاميل ومادلين ، وجرت صوفي للقائهما ، وكان بول قد صادفهما في مدخل البيت ، وعانقت البنات بعضهن بعضاً ، ثم ذهبت كاميل ومادلين إلى إلقاء التحية على السيدة ريان ، ثم مضتا مع صوفي لرؤية الدمية .

كاميل : وا أسفاه ! على الرغم من أنها جميلة .

مادلين : ولكن كيف فقدت عينيها ؟ لا بد أن لها عينين من قبل .

ولم تجبهما صوفي ، بل كانت تنتحب بصمت على دميتها العمياء .



مادلين : لكن دميتك عمياء ! ليس لها عينان !

السيدة ريان : لقد حذرتك يا صوفي ، أن دميتك سيصيبها أذى إذا أصررت على وضعها تحت أشعة الشمس ! ولحسن الحظ فإن وجهها ويديها لم تذب بعد ، هيا يا بنيتي ، لا تبكي ! أنت تعلمين أني طبيبة ماهرة ، ولعلي أقدر أن أعيد لدميتك عينيها .

صوفي : غير ممكن يا ماما ، لأنهما اختفتا .

فأمسكت بها السيدة ريان وهزّتها وهي تبتسم ، فسُمع صوت شيء ما يتدحرج داخلها .

فقالت السيدة ريان :

– إنه صوت عينيها فقد ذاب الشمع حول عينيها وسقطتا ، اخلعوا عن الدمية ملابسها على حين أهيئ أدواتي .

وسارعت الفتاتان وبول إلى نزع ثياب الدمية ، وكفت صوفي عن البكاء في انتظار ما سيحدث بعد ذلك .

رجعت الأم حاملة معها مقصاً وشقت جانباً من الدمية فسقطت العينان على ركبتيها ، فأمسكتهما بملقط وأعادتهما إلى مكانهما ، ثم أذابت شيئاً من الشمع وألصقت به العينين . وانتظرت بضع دقائق حتى برد الشمع ثم أعادت خياطة ما شقته من الدمية .

لم تتحرك البنات ، وأما صوفي فكانت تراقب حركات أمها وقد انتابها القلق والخوف من ألا تنجح العملية . ولكنها حين رأت دميتها قد عادت إلى ما كانت عليه رمت نفسها على عنق أمها وأمطرته قُبلاً وهي تقول :

– شكراً يا ماما .. شكراً يا ماما .. سأسمع كلامك في المرة القادمة .

ألبست البنات الدمية بسرعة وأجلسنها فوق كرسي وتجولن بها فرحات . لقد عاشت هذه الدمية زمناً طويلاً ، وكانت صوفي تحبها

كثيراً وتعتني بها . ولكنها فقدت شيئاً فشيئاً ألوانها وزال عنها جمالها ، وإليكم ما حدث .

ذات يوم ظنت أن الدمية كالأطفال ، وبما أن الأطفال يستحمون دوماً وجدت من اللائق غسلها ، فتناولت الماء والصابون والإسفنجة وبدأت تحكّها بشدة . ومازالت تحكها حتى نزعت عنها ألوانها كلها ، وأصبح خداها وشفتاها بلون الليمون كأنها مريضة ، وظلت على هذه الحال ، وبكت صوفي ، ولكن بكاءها لم يُعد إلى الدمية لونها الوردي .

في يوم آخر أرادت صوفي أن تجعد شعر دميتها فلفت حوله ملقط الشعر الساخن وانتظرت مدة طويلة ، وتوقعت أن يصبح أجعد ، ولكنه لصق بالملقط واحترق كله ، وأصبحت دميتها صلعاء ، وبكت صوفي ولكن بكاءها لم يُعد إلى الدمية شعرها .

وفي يوم آخر أرادت صوفي أن تنصرف إلى تربية دميتها وتعليمها بعض الحركات الرياضية ، فعلقتها من ذراعيها بخيط ولكنها لم تربطه جيداً فسقطت الدمية على الأرض وكسرت ذراعها ، وحاولت السيدة ريان إصلاحها فسخنت الشمع ولكنه لم يكن كافياً ، فأصبحت يد الدمية اليمنى أطول من اليسرى ، وبكت صوفي كثيراً ، ولكن ظلت يد الدمية أطول من الأخرى .

وفي يوم آخر أرادت أن تغسل قدمي دميتها لأنها رأت الكبار يفعلون هذا ، فسخنت الماء حتى ارتفع منه البخار وغمست قدميها فيه فلم تخرجا منه ، وأصبحت الدمية مقطوعة القدمين ، وبكت صوفي كثيراً ولكن لم يُعد البكاءُ قدمي الدمية .

بعد هذه المصائب كلها تناقص حب صوفي لدميتها التي أصبحت عجوزاً بشعة المنظر تسخر منها صاحباتها .

وكانت النهاية حينما أرادت صوفي أن تدرب دميتها على تسلق الأشجار ، فوضعتها فوق أحد الأغصان ، ولكنها فقدت توازنها وسقطت على الأرض وأصاب رأسها حجر فتهشم إلى مائة قطعة ، ولم تبك صوفي هذه المرة بل دعت صاحباتها إلى حضور دفن دميتها .

الفصل الثاني

دفن الدمية

وصلت كاميل ومادلين صباحاً لحضور دفن الدمية ، وكان فرحهما لا يقل عن فرح صوفي وبول .

صوفي : كاميل ، مادلين ! أسرعا فنحن ننتظركما لنصنع تابوت الدمية .

كاميل : أين سنضعها ، إذن ؟

صوفي : سنضعها في علبة الدمى القديمة ، وقد غلفتها مربيتي بقماش وردي ، إنها جميلة جداً .

وسارعت الفتيات إلى رؤية المربية التي كانت قد انتهت من صنع وسادة صغيرة وفراش ليوضعا داخل التابوت ، وقد أعجبن بهما ووسدن الدمية المسكينة داخل التابوت وسحبن فوقها لحافاً وردياً أيضاً لئلا يظهر رأسها المهشم وأطرافها المبتورة .

وطلبت الأم من البستاني أن يصنع محفّة صغيرة ليحمل التابوت فوقها ، ثم نشب بينهما الخلاف حول من يحمل المحفة ، إذ لا يستطيع حملها سوى شخصين ، واحد من الأمام وآخر من الخلف .

وتقرر بعد نقاش طويل أن تحمل صوفي وبول المحفة وأن تمشي مادلين أمامها وكاميل خلفها حاملتين الزهور وأوراق الشجر التي سترمى فوق قبرها .

وحين وصل الموكب الجنائزي إلى الحديقة الصغيرة التي تزرعها صوفي ، وضعت المحفة على الأرض ومعها العلبة التي تحتوي بقايا الدمية البائسة .

ثم حفرن حفرة صغيرة في الأرض ووضعن فيها التابوت والعلبة وأهلن عليها التراب ، ثم وضعن الزهور وأوراق الأشجار فوق القبر وغرسن فوقه نبتتين من الزنبق ، وفي خاتمة هذه الطقوس ملأن المرش بالماء وسكبنه فوق الزنبقتين ، وكانت هذه مناسبة للهو والمرح ، إذ بدأن يتراشقن بالماء ويتراكضن ويضحكن ويهرب بعضهن من بعض ، ولم تشهد المنطقة جنازة أكثر مرحاً من جنازة الدمية ، وما ذلك إلا لأن الدمية المتوفاة عجوز فقدت ألوانها الزاهية وسقط شعرها ولم تعد لها يدان ولا قدمان ولم يأسف أحد لموتها .

وانقضى النهار على أحسن ما يكون من المرح والسرور ، وحينما ودعتهما مادلين وكاميل طلبتا من صوفي وبول أن يكسرا في أقرب وقت دمية أخرى لتحضرا مثل تلك الجنازة البهيجة .



الفصل الثالث

الكلس



لم تكن صوفي الصغيرة لسوء الحظ مطيعة لكلام أمها ، وطالما منعتها من الذهاب وحدها إلى الباحة حيث يشتغل البناؤون في صنع بيت صغير للدجاج والطواويس وصنع أرصفة تحيط بالمرج الأخضر . وكانت صوفي تحب مشاهدة البنائين أثناء عملهم ولا تتعب من التفرج عليهم ، وكم صحبتها أمها معها إلى الباحة ولكنها أمرتها أن لا تبتعد كثيراً .

وتحب صوفي أن تجري وحدها يميناً وشمالاً ، فسألت أمها :

– لماذا لا تريدين يا ماما أن أتفرج على البنائين وحدي ؟ ولماذا تريدين أن أبقى بقربك دائماً ؟

السيدة ريان :

– لأن البنائين يقذفون بالحجارة يا صوفي وقد تصيب واحدة رأسك ، ولأن هناك الرمل والكلس وقد تزلقين فيه وتؤذين نفسك .

صوفي : سأنتبه جيداً يا ماما ، ثم إن الرمل والكلس لا يؤذيان .

السيدة ريان : تقولين هذا لأنك ما تزالين صغيرة ، وأنا أكبر منك وأعرف أن الكلس يحرق البنات الصغيرات .

– صوفي : ولكن يا ماما ! ..

السيدة ريان : هيا يا صوفي ، لا تكوني عنيدة ، أنا أدرى بما ينفعك وما يؤذيك ، ولذلك لا أريدك أن تذهبي إلى الباحة وحدك .

فأحنت صوفي رأسها ولم تقل شيئاً ، وقالت لنفسها :

– سأذهب مهما جرى فلن يؤذيني الذهاب وحدي .

بعد ساعة حانت الفرصة لصوفي كي تنفذ ما عزمت عليه ، إذ جاء البستاني يطلب من والدها مرافقته إلى الحديقة لكي تختار أنواع الزهور التي سيزرعها .

وبقيت صوفي وحدها ، فتلفتت إلى كل ناحية لتتأكد من أن مربيتها لا تراها ، ولا أحد من الخدم أيضاً ، وفتحت الباب وجرت إلى الباحة ، كان البناؤون مشغولين بأعمالهم عن هذه الطفلة الصغيرة التي تتفرج عليهم .

بعد لحظات وجدت نفسها قرب حوض كبير مملوء بالكلس المائع الشديد البياض كأنه القشدة الطازجة .

والمعلوم أن الكلس يخلط بالرمل ويضاف إليه الماء ويستخدم في البناء ، وهو شديد الخطورة إذ أنه يحرق الجلد ويأكل اللحم ، لذلك لا ينبغي لمسه إلا إذا كنت تلبس القفازات .

وفكرت صوفي التي لم تكن تعرف خطورته ولا تصدق كلام أمها :

– ما أجمل هذا الكلس وما أشد بياضه ! لم أره من قبل عن كثب . ولا تتركني أمي أقترب منه ، ولا ريب أنه ناعم الملمس وأستطيع أن أتزحلق فوقه كما أتزحلق فوق الجليد .

وضعت صوفي قدمها في الكلس ظانة أنه جامد كالجليد ، ولكن قدمها غاصت فوراً ، ولئلا تسقط وضعت قدمها الأخرى فوجدت نفسها داخل الكلس الحيّ إلى وسط ساقها ، فأطلقت صرخة رعب عالية ، ورفع أحد البنائين رأسه عن عمله واتسعت عيناه من الدهشة وانطلق إليها وحملها كأنها ريشة ، ثم وضعها على الأرض وهو يصيح فيها :

– اخلعي حذاءك بسرعة ! لقد احترق حذاؤك ، وإذا لبسته فسوف تحترق قدماك .

وبدأت صوفي تحس باحتراق في قدميها وساقيها ، فنظرت إليها مذعورة ، وكان حذاؤها وجوربها قد اسودّا كأنما قد أحرقتهما النار ، وما لبثت أن أحست بالاحتراق يصيب قدميها ، فجعلت تبكي وتتلوى من الألم ، ولحسن حظها فإن مربيتها لم تكن بعيدة فأسرعت إليها وأدركت ما حدث لصوفي ، فنــزعت عنها حذاءها وجوربها ورمتهما بعيداً ومسحت قدميها بمئزرها وحملتها بين ذراعيها وهي تجري .

كانت أمها في الغرفة تبحث عن النقود لتدفعها إلى بائع الزهور ، ورأت هذا المشهد فسألت مذعورة :

– ماذا حدث ؟ هل أصيبت صوفي بأذى ؟ لماذا هي عارية القدمين ؟ .

وكانت صوفي تبكي وهي تحس بالخجل والخوف ، وشرحت المربية للسيدة كيف دخلت صوفي حوض الكلس ، فكادت أن تحرق قدميها :

– ولولا أني سارعت إليها لاحترق قدماها كما احترق مئزري المملوء بالثقوب الآن .

فالتفتت أمها إليها وقالت لها بلهجة قاسية :

– كان من واجبي أن أعاقبك بالضرب لأنك عصيت أمري ، ولكن الله عاقبك بأن أحرق قدميك ، وبالخوف الذي أصابك . وعليك

الآن أن تدفعي لمربيتك خمسة الفرنكات التي وفرتها في حصالتك لتشتري بها مئزراً جديداً .

وبكت صوفي كثيراً ولكن أمها أصرّت على رأيها ، واضطرت صوفي أن تدفع خمسة الفرنكات للمربية ، ووعدت أمها بأن تكون مطيعة لأمرها ولا تذهب إلى مكان نهتها عن الذهاب إليه .



الفصل الرابع

السمكات الحمراء

كانت صوفي طائشة تفعل أموراً مؤذية دون تفكير ، وإليكم ما حدث لها . ذات يوم كان لدى السيدة ريان سمكات حمراء تحبها كثيراً ، وهي سمكات صغيرة لا يتجاوز طول الواحدة عدة سنتيمترات وتعيش في حوض مملوء بالماء وفي قاعه رمل وبعض الحصى لكي تختبئ فيه .

وكانت السيدة ريان ترمي بفتات الخبز للسمكات كل يوم وتتفرج صوفي عليها وهي تتدافع نحو الفتات وتتنازعه .

ذات يوم أهداها أبوها موساً وفرحت صوفي به . فكانت تستخدمه لتقطيع الخبز وتقشير التفاح والزهور ...

وذات صباح كانت صوفي تلهو وحدها ، وتقطع الخبز وأوراق الخس لتصنع غداء لدميتها ، وطلبت من مربيتها شيئاً من الزيت والخل لتضيفه إلى الخس ، فقالت لها المربية :

– إن الملح يكفي ، وأما الزيت والخل فقد يلوثان فستانها .

خاب أمل صوفي ، لكنها رضيت بالملح ، فأضافته إلى قطع الخس وبقي معها شيء من الملح ، وساءلت نفسها :

– ماذا أفعل بالملح ؟ لا يمكنني أن أضيفه إلى الخبز ، ولابد أن أرشه على اللحم أو السمك .. نعم السمك ، سأملح سمكات ماما الحمراء ، سأقطع بعض السمكات بالموس وأترك بعضها الآخر ، وسوف يكون طبقاً شهياً تأكله دميتي .

ولم تفكر صوفي في أن أمها لا تحب أن تصاب سمكاتها بأذى ، ولم تفكر في أن السمكات لا تحب أن تملح سواء كانت شرائح أو كاملة دون تقطيع . وجرت إلى القاعة ، وقضت بعض الوقت في الإمساك بها إذ كانت تزلق من يديها ، ثم وضعتها في منديلها ، ومددت بعضها في صحون الدمية وبعضها الآخر في طبق ثان . واختنقت السمكات طبعاً ، وحاولت الإفلات من قبضتها ، فأزعج هذا صوفي ، فرشت كمية من الملح على رأسها وذيلها ، ولاحظت أن هذه العملية ناجحة جداً وأن السمكات هدأت حركتها ، والسبب واضح فقد ماتت .



بعد أن امتلأ الصحن الأول من السمكات المملحة تناولت صحناً آخر وبدأت تقطع فيه السمكات شرائح متساوية ، وتحركت السمكات إذ ما تزال فيها الحياة ، ولكن سرعان ما استسلمت وهدأت ، وفكرت صوفي قليلاً فرأت أنها قد قتلت السمكات كلها حتى تلك التي رشت عليها الملح .

وارتسم الخوف على ملامح صوفي ، وقالت لنفسها :

– ماذا ستقول ماما الآن ؟ وماذا سأفعل ؟ وكيف أصلح ما أفسدت ؟

وفكرت برهة ، ثم أشرق وجهها إذ عثرت على حل رائع .

جمعت صوفي السمكات كلها المقطعة شرائح وسواها ورمتها في الحوض وهي تقول لنفسها :

– ستظن أمي أن السمكات تقاتلت ومزق بعضها بعضاً . سوف أنظف موسي وصحني جيداً وأرمي الملح .. ولحسن حظي فإن مربيتي مشغولة بخياطتها ولا تفكر فيَّ .

عادت صوفي إلى غرفتها على رؤوس أصابعها ، وانصرفت إلى تحضير طعام دميتها بكل هدوء وبراءة ، ثم سئمت هذه اللعبة ، فأمسكت كتاباً مصوراً وبدأت تنظر فيه ، ولكنها كانت قلقة ولا تعير انتباهها للصور بل تظن لدى كل حركة أن أمها قد جاءت .

وفجأة ارتفع الدم إلى وجنتيها فقد سمعت صوت أمها تنادي الخدم ، وكان صوتاً مرتفعاً يدل على غضبها ، والخدم يذهبون ويجيئون وقد بدت الحيرة عليهم ، وأما صوفي فكانت ترتجف خائفة أن تنادي أمها مربيتها أو تناديها هي ، ولكن سرعان ما انتشر الهدوء ولم تعد تسمع حساً ولا حركة ، وأرادت مربيتها أن تعرف سبب هذا

الاضطراب فخرجت من الغرفة لتعرف الحقيقة وعادت بعد ربع ساعة قائلة :

– الحمد لله أننا كنا في الغرفة معاً ولم نخرج منها ، تصوري أن أمك وجدت كل سمكاتها ميتة ! وبعضها مقطّعاً شرائح صغيرة ! فجمعت الخدم كلهم واستجوبتهم لتعرف من قام بهذا العمل الوحشي ، ولكن دون جدوى ، وسألتني عنك فقلت لها إنك لم تتحركي من جانبي حيث كنت تعدين العشاء لدميتك ، فقالت إنها تراهن على أن هذا صنيع يديك ، فقلت لها إن صوفي غير قادرة على ارتكاب مثل هذا العمل الفظيع ، فقالت : لحسن حظها أنها كانت معك وإلا كان عقابها شديداً . فأكدت لها أنك كنت معي .

لم تقل صوفي شيئاً بل كانت مطرقة وقد احمر وجهها وترقرقت الدموع في عينيها ، وكادت أن تعترف لمربيتها بكل ما فعلته ، ولكن خانتها شجاعتها .

ورأت المربية حزنها فظنتها جزعة على موت السمكات الحمراء ، فحاولت أن تواسيها :

– كنت متأكدة أن حزنك لا يقل عن حزن أمك لموت السمكات . ولكن هذه السمكات لم تكن سعيدة في حوضها لأنه سجن

لها ، وقد أنهى الموت عذابها . فلا تحزني وتعالي أرتب لك ملابسك فقد حان وقت العشاء .

بعد أن مشطت المربية شعرها وهيأت ثيابها دخلت صوفي القاعة فوجدت أمها .

السيدة ريان : هذه أنت يا صوفي ؟ هل حكت لك المربية عما حدث للسمكات ؟

صوفي : نعم ، يا ماما .

السيدة ريان : لولا أن المربية أكدت لي أنك كنت معها لقلت إنك أنت التي قتلت هذه السمكات ، وأظن أن الخادم سيمون قد سئم منها وأراد التخلص من هذه السمكات ، ومن تنظيف حوضها كل صباح فقتلها ليتخلص من مسؤولية العناية بها ، سأطرده غداً .

صوفي : لا يا ماما .. إن لديه زوجة وأولاداً !

السيدة ريان : هذا ذنبه ! ما كان ينبغي له أن يقتل سمكاتي الصغيرة التي لم تؤذه ، وكم آلمها إذ قطعها شرائح صغيرة !

صوفي : ولكنه لم يفعلها .. أؤكد لك يا ماما أنه لم يفعلها !

السيدة ريان : وكيف عرفت أنه لم يفعلها ؟ لا أحد سواه يجرؤ على ذلك ، وسأطرده غداً .

صوفي : أرجوك يا ماما لا تطردي سيمون المسكين ! أنا التي قتلت السمكات .

السيدة ريان : أنت ؟ أنت التي تحبين هذه السمكات أشد الحب تشرحينها شرائح ؟ تقولين هذا دفاعاً عن سيمون لئلا ينال جزاءه .

صوفي : لا يا ماما ! أؤكد لك أني فعلتها ، لقد ملحتها لأقدمها عشاء لدميتي ، ولم أكن أعرف أن الملح سيؤذيها ، ولم أكن أعرف أن تقطيعها شرائح يؤذيها ، فقد كنت أقطّع الجزر الأحمر ولا يتأذى ! ولم تكن السمكات تصرخ ، وحين وجدتها ميتة أعدتها إلى الحوض ، وكانت المربية مشغولة عني ولم ترني أخرج من الغرفة .

وذهلت السيدة ريان لاعتراف ابنتها بهذا العمل حتى بقيت دقائق تحدق فيها ولا تتكلم ، وأما صوفي فقد اضطرب قلبها خوفاً مما ستفعله أمها ، ولكنها دهشت لأنها لم تلمح الغضب على وجهها .

وقالت لها أمها بعد صمت طويل :

– لو عرفت هذه الحقيقة وحدي لكان عقابك شديداً . ولكن خوفك على سيمون البريء دفعك للاعتراف بذنبك ، ولذلك غفرت لك . واعلمي يا صوفي أن الحيوانات تتعذب من الذبح والتقطيع ولا

علاقة بين الجزر الأحمر والسمكات الحمراء ، ومن واجبنا الرفق بالحيوان .

وكانت صوفي تبكي متأثرة بعاطفة أمها نحوها .

وتابعت السيدة ريان :

– هيا يا بنيتي .. توقفي عن البكاء ، واعلمي أن من يعترف بذنبه يغفر له الله هذا الذنب ، ولا تعودي إلى مثل هذا العمل أبداً !

مسحت صوفي عينيها المحمرتين ، ولكنها قضت الليل كله حزينة لما سببته من آلام لتلك السمكات الحمراء .

الفصل الخامس

النحلة

ذات يوم كانت صوفي تلهو مع ابن عمها بول في غرفتها فتطارد الذباب الذي يقف على زجاج النافذة ، فإذا أمسكت بواحدة وضعتها في علبة صنعها أبو بول من الورق المقوى ، وبعد أن أمسكت عدداً منها قال لها بول :

– أعطيني العلبة لأرى ما تفعل الذبابات داخلها .

وتناول العلبة ووضع عينه على فتحة فيها وقال :

– ما أعجب هذه الذبابات وما أسرع حركتها ! وهذه واحدة تنــزع رجل صاحبتها وترميها ، الذبابات غاضبة تتحرك في كل اتجاه .

قالت صوفي :

– دعني أنظر إليها !

ولكن بول لم يجبها ولم يرفع عينيه عن ثقب العلبة وقد أمسكها بكلتا يديه ، وصرخت صوفي :

– أعطني العلبة .

ولكن بول أدار لها ظهره وانحنى على العلبة يمنعها من النظر إليها ، فاهتاجت صوفي وحاولت انتزاعها منه ولكنه قاومها . فأمسكت صوفي بطرف العلبة وشدتها إليها ، فتمزقت العلبة وطارت الذبابات ووقفت على أنف بول وخديه ، وحاولت صوفي طردها ولم تستطع فقالت لبول :

– الذنب ذنبك .. لو أنك تركتني أتفرج عليها لما تمزقت العلبة وهربت الذبابات .

فقال بول :

– بل أنت السبب .. لو انتظرت دورك لما تمزقت العلبة .

صوفي : يا لك من أنانيّ .. لا تفكر إلا في نفسك !

بول : وأنت مغرورة تحبين الشجار مثل ديك الهند !

صوفي : لست مغرورة ، بل أنت الشرير !

بول : لست شريراً ، بل أنت سريعة الغضب مثل ديك الهند بعُرفه الأحمر فوق رأسه .

صوفي : لن ألعب مع ولد شرير مثلك !

بول : وأنا لا ألعب مع بنت سريعة الغضب .

وانصرف كل منهما إلى ناحية لا يكلم صاحبه .

وسرعان ما شعرت صوفي بالسأم ، ولكنها لم تشأ أن يظهر عليها ذلك أمام بول ، فبدأت تغني وتتظاهر بأنها تطارد الذباب ، ولكنها لم تقبض على واحدة منها ، وفجأة لمحت صوفي نحلة واقفة بهدوء في زاوية النافذة ، وكانت تعرف أن النحل يقرص فلم تقبض عليها بيدها وإنما أخذت منديلها ورمته على النحلة وأمسكت بها قبل أن تنتبه إليها .

وكان بول الذي لا يقل عنها سأماً يتأمل حركاتها ، وسألها :

– ماذا ستفعلين بهذه النحلة ؟

صوفي : لا يهمك ما أفعل بها .. دعني أيها الشرير !

بول : لا تؤاخذيني يا سريعة الغضب ، والحق عليّ لأني كلمتك فأنت قليلة الأدب ، سيئة التربية .

صوفي : سأقول لماما إنك تراني سيئة التربية ، وستفرح كثيراً لأنها هي التي تربيني .

بول : لا يا صوفي .. لا تقولي لها .. سوف توبخني .

صوفي : سأقول لها حتماً .. وإذا وبختك فلأنك تستأهل التوبيخ .. وسأكون مسرورة لذلك .

بول : إذن لا تكلميني أبداً !

وأدار لها ظهره ، وفرحت صوفي لأنها أخافته بتهديدها ، ثم عادت إلى نحلتها ، فأزاحت طرف المنديل وأمسكت برأسها وأخرجت موساً من جيبها وقالت لنفسها :

– سأقطع رأسها عقاباً لها على كل لسعاتها .

لم تكن صوفي تدري أن هذه النحلة لم تلسع أحداً في حياتها ، لأنها حين تلسع تظل إبرتها لاصقة في الجلد ، وتموت على إثرها .

وضعت صوفي النحلة على الأرض وقد أمسكتها بالمنديل وأخرجت رأسها ، وبضربة واحدة من الموس قطعته ، ثم مزقتها قطعاً صغيرة ، وكانت مشغولة بحيث لم تنتبه إلى قدوم أمها التي أرادت أن تعرف سبب اهتمامها الشديد بعملها ، فدنت منها دون أن تحدث ضجة ، فرأتها تقطع النحلة ، فاجتاحها الغضب وأمسكت بأذن صوفي .

فصرخت صوفي من الألم ونهضت دفعة واحدة وهي ترتجف لرؤية أمها .

فقالت لها بلهجة قاسية :

– أنت فتاة شريرة ، متوحشة .. تعذبين الحيوانات ، وقد وعدتني ألا تعودي إلى مثل هذه الأفعال حين قتلت السمكات الحمراء !

صوفي : نسيت يا ماما .. أؤكد لك أني نسيت .

السيدة ريان : سأجعلك تذكرين هذا طول عمرك ، أولاً سآخذ منك هذا الموس ولا أعيده إليك ، وثانياً سأضم أجزاء هذه النحلة في عقد تحملينه حول عنقك حتى يهترئ ويتساقط .

بكت صوفي راجية أمها ألا تنفذ وعيدها ، ولكن الأم نادت الخادمة وطلبت منها إحضار إبرة وخيط أسود ، وضمت قطع النحلة عقداً صغيراً وربطته حول عنقها .

جلست صوفي وحدها تبكي من الخجل ، فاقترب بول منها يخفف عنها حزنها ويؤكد لها أن اللون الأصفر والبني شبيه بحبات العقد ، وأن عقدها ليس بشعاً كما تتخيل ، وطلب منها أن تصفح عنه لأنه وصفها بالغرور وهو لا يقصد ذلك إطلاقاً . هدأت صوفي لاستعادتها صداقة بول ، ووقفت عن البكاء ولكنها ظلت كئيبة .

ظل العقد معلقاً في رقبة صوفي أسبوعاً كاملاً ، وذات يوم جذبها بول من رقبتها وهما يلعبان فتساقطت قطع النحلة .. وانتهت عقوبتها .

وتعلمت منذ ذلك اليوم أنه لا ينبغي لها أن تعذب حيواناً أبداً .

الفصل السادس

الشعر المبلل



كانت صوفي تحب الزينة وارتداء الثياب الجميلة ، وأن يقال عنها إنها أنيقة ، ولم تكن صوفي شديدة الحسن ، ولكنها لم تكن قبيحة أيضاً . وهي نضرة نضارة الفتيات في مثل سنها ، عيناها عسليتان مدورتان ، وأنفها يميل إلى الضخامة ، وفمها كبير دائم الابتسام ، وأما شعرها فقريب من اللون الأشقر ولكنه أملس وقد قصته قصيراً كشعر الصبيان .

وكانت تحب الملابس الأنيقة ، ولكن السيدة ريان أرادت تعويدها على حرارة الشمس والريح والمطر والبرد ، فكانت تضطرها إلى ارتداء فساتين بسيطة لا أكمام لها صيف شتاء ، وتلبس حذاء ضخماً متيناً وقد ألفته صوفي لأنه يساعدها على الركض في الحديقة . وكم كانت تود لو كان شعرها أجعد .

وكانت قد سمعت الجارات ذات يوم يمتدحن شعر صديقتها كاميل الأجعد فتمنت أن يكون شعرها أجعد مثلها ، وسعت إلى ذلك . وإليكم آخر ما توصل إليه خيالها من ابتكارات .

هبت في ذلك اليوم عاصفة ممطرة وكأنها الطوفان ، والوقت صيف وأبواب المنـــزل ونوافذه مفتوحة ، فوقفت تتفرج على هذا الجو الماطر بين درفتي الباب ، وقد منعتها أمها من الخروج ، فكانت تمد يدها لتسقط عليها بعض قطرات المطر ، ثم مدت عنقها لتسقط عليه بعض هذه القطرات ، وتذكرت أن كاميل قالت لها إن الماء يجعل الشعر أجعد ، فلم لا تبلل شعرها ليصبح أجعد مثل شعر كاميل ؟

خرجت صوفي إلى الباحة ووقفت تحت المزراب تستقبل المطر على رأسها وعنقها وظهرها وذراعيها وهي فرحة مبتهجة ، وحين ظنت أنها أخذت كفايتها من البلل دخلت غرفتها وجعلت تنشف شعرها بمنديلها وتخلّله بأصابعها ليصبح أجعد ، ولم يكفها منديل واحد فذهبت تبحث عن منديل آخر . فوجدت أمها أمامها فنظرت إليها مرتعشة وشعرها أشعث يقطر الماء منه وكأنه إبر قنفذ ، وذهلت أمها لهذا المشهد ثم انفجرت ضاحكة إذ كان مشهداً عجيباً . وقالت لها :



- هذه إحدى أفكارك العبقرية ! لو رأيتِ وجهك لضحكتِ كما أضحك منك الآن ، وقد منعتك من الخروج ولكن الآنسة تفعل ما يحلو لها !

حسناً .. لتكن عقوبتك أن تظلي كما أنت بشعرك الأشعث المنفوش فوق رأسك وفستانك المبلل ، وهكذا يستطيع أبوك أن يعجب هو أيضاً بهذا المشهد الجميل ، خذي هذه المنشفة وأكملي ما فعلته .

ما كادت الأم تنهي كلامها حتى دخل بول والسيد ريان فوقفا مذهولين لهذا المنظر ! وأما صوفي فقد احمر وجهها وشعرت بالخجل والأسف وندمت على فعلتها ، ثم انفجر الأب ضاحكاً وسأل عن مناسبة هذا ((الاحتفال)) ، أم أنّ صوفي تريد أن تتنكر في زي القنفذ ؟

السيدة ريان :

– هذا ما أدعوه حب الزينة ، تريد أن تصبح جميلة فإذا هي تثير الضحك .

بول : هيا يا صوفي ! أسرعي إلى الحمام وجففي شعرك ومشّطيه وبدلي فستانك . لو عرفت كم أنت مضحكة لما وقفت لحظة واحدة .

السيدة ريان :

– لا .. سوف تبقى صوفي على هذه الحال ، وتتناول العشاء وهي في فستانها المبلل الملطخ بالوحول .

بول : أرجوك يا عمتي ! اصفحي عنها .. واسمحي لها أن تبدل فستانها وتمشط شعرها .. إنها مثيرة للضحك في هذه الملابس .

السيد ريان : أضم صوتي إلى بول وأرجو الصفح عنها هذه المرة فقد يؤذيها البرد . ولكنها إذا عادت إلى فعلتها فالأمر يختلف حينئذ .

صوفي : أعدك أن لا أعود لمثلها يا بابا !

السيدة ريان : إكراماً لوالدك أسمح لك بتبديل فستانك . ولكنك لن تتناولي العشاء معنا ، بل تبقين في غرفتك ولا تخرجين إلا بعد العشاء .

بول : ولكن يا عمتي .. أرجوك !

السيدة ريان : لا يا بول .. هذا قراري الأخير . ومنذ ذلك اليوم لم تعد صوفي تقف تحت المزراب لكي تجعد شعرها .

الفصل السابع

الحاجبان المقصوصان



هناك شيء آخر كانت تتمناه صوفي ، وهو أن يكون لها حاجبان كثيفان ، وقد سمعت من يقول إن الصغيرة لويز بنت جيرانها جميلة لأن حاجبيها كثيفان ، وأما صوفي فقد كان حاجباها خفيفين ، إذ هي شقراء الشعر ولا يكادان يظهران . كما سمعت أن حلاقة الشعر الدائمة تكثف الشعر وتزيد من غزارته .

ذات يوم نظرت صوفي في المرآة فتأكدت أن حاجبيها خفيفان ، فقالت لنفسها :

– لا بد أن أقص حاجبيّ حتى يصبحا كثيفين .

وأمسكت بالمقص وقد أخرجت لسانها وقصت حاجبيها بعناية وإتقان .

ونظرت في المرآة فدهشت لمشهدها دون حاجبين فعزمت على ألا تدخل القاعة ، وقالت لنفسها :

– سأنتظر حتى العشاء حين يكون الجميع مشغولين بالتهام الطعام ، ولن يلاحظ أحد بعدئذٍ ما حدث .

افتقدتها أمها على العشاء فأرسلت بول إلى غرفتها .

وناداها بول :

– صوفي ! أين أنت ؟ ألا تأتين للعشاء ؟

فأجابته وكأنها مشغولة بأمر ما :

– نعم .. نعم .. إني قادمة حالاً .

وبدأت تمشي بالمقلوب لئلا يرى بول وجهها ، فظن أنها تلاعبه ، ولكنها حين وصلت إلى قاعة الطعام اضطرت إلى الالتفات والجلوس مثل بقية الناس ! وما إن رأوها حتى انفجروا ضاحكين ، وصاح السيد ريان :

– آه .. يا رب .. ما أجمل هذا المنظر !

وقالت السيدة ريان :

– لقد قصت حاجبيها .

وقال بول :

– منظرها غريب !

وقال السيد أوبير والد بول :

– كم يتبدل الإنسان بدون حاجبين !



وقالت السيدة أوبير :

– لم أر في حياتي أغرب من هذا الوجه !

ظلت صوفي واقفة مسبلة الذراعين ، مطأطئة الرأس ، لا تعرف ما تفعل بنفسها .

وكم كان سرورها عظيماً حين صاحت بها أمها :

– لا تفعلين سوى الحماقات ، هيا .. اخرجي إلى غرفتك .. لا أريد رؤيتك هذا المساء .

في طريقها إلى غرفتها رأتها الخادمة فانفجرت بالضحك وهي ترى هذا الوجه المحمرّ ولا حاجبين له ، ولا تسل عن غضبها بعدئذ ، فكلما رآها أحد ابتسم ثم قهقه ضاحكاً ونصحها أن ترسم حاجبين بالفحم أو بالحبر .

ذات يوم جاءها بول يحمل علبة صغيرة مغلقة ومربوطة بالخيوط ، وقال لها :

– هذه هدية من والدك .

– وماذا فيها ؟

– افتحيها وستعرفين .

وحين فتحتها وجدت فيها حاجبين اصطناعيين كثيفين .

فقال لها بول :

– الصقيهما .. لتكوني جميلة كما تمنيت .

فرمت العلبة وقد احمرت من الغضب ، وجرى بول ضاحكاً .

تطلب الأمر ستة أشهر حتى نبت حاجبا صوفي ، ولم يكونا أكثف من قبل ولكنه درس تعلمته ولم تعد تقص حاجبيها مهما كان السبب .

الفصل الثامن

خبز الخيول



كانت صوفي نهمة أكولة ، وقد حذرتها أمها السيدة ريان من عاقبة النهم ، وأكدت لها أن كثرة الأكل مضرة بالصحة ، ومنعتها من تناول الطعام بين الوجبات ، ولكن صوفي دائمة الإحساس بالجوع وتأكل كل ما يقع تحت يدها .

وكان من عادة السيدة ريان أن تمضي إلى الإسطبل بعد الساعة الثانية وتحمل إلى الخيول التي يملكها زوجها خبزاً وملحاً ، وكان عددها يتجاوز المائة ، إذ كان زوجها مربياً للخيول لديه إسطبل كبير وتجارة مزدهرة .

تبعت صوفي أمها حاملة سلة خبز يابس ، وكلما دخلت أحد المعالف قدمت للحصان قطعة خبز ، وقد منعتها أمها من تناول الخبز

فهو يابس ولم ينضج جيداً . وبينت لها السيدة ريان أن هذا الخبز يؤذي معدتها .

كان في الإسطبل مجموعة من الخيول القزمة التي تسمى (بوني) . وهي لا تنمو بسرعة وتظل صغيرة الحجم وقد أهداها والدها أحد هذه الخيول ، وكان مهراً لا يصلح للركوب بعد ، وكانت شديدة الولوع به ، وسمح لها والدها أن تقدم له الخبز بيدها ، وهذا سبب افتخارها بحصانها .. ولكنها قبل أن تقدم له قطعة الخبز تقضم منها دون أن يراها أحد .

خطر لها ذات يوم أن تأكل قطعة أكبر مما اعتادت عليه من خبز الحصان ، فأمسكت بها بأصابعها وأدنتها من فمه ، ولكن الحصان لم ينتبه إلى أصابعها فعضها مع قطعة الخبز ، فتركتها وقد آلمتها عضته . ولم تجرؤ على الصراخ على الرغم من أن الدم يسيل من أصابعها ، فربطتها بمنديلها وأخفت يدها وراء مئزرها ولم تنتبه السيدة ريان إليها .

حان وقت الغداء واضطرت صوفي أن تأكل بيدها ، فسال الدم منها على غطاء المائدة ، فقالت لها أمها :

– ما بها يدك يا بنيتي ؟ هل جرحت إصبعك ؟



وتظاهرت صوفي بأنها لم تسمع سؤالها .

السيدة ريان :

– صوفي ؟ إني أسألك من أين جاء الدم الذي يلطخ الغطاء ؟

صوفي :

– إنها .. إنها إصبعي يا أمي .

السيدة ريان :

– إصبعك ؟ أرنيها ! ولكنك مجروحة يا صغيرتي المسكينة ! كيف جرحتها ؟ ومتى ؟

صوفي :

– هذا الصباح يا ماما ، لقد عضني حصاني الصغير .

السيدة ريان :

– حصانك الصغير ! ولكنه وديع كالحمل ، فكيف عضك ؟

صوفي :

– حينما كنت أقدم إليه الخبز .

السيدة ريان :

– ولكنك لم تطعميه .. كما بينت لك دائماً أن تضعي الخبز على كفك المبسوطة .. كم مرة شرحت لك ذلك ؟

صوفي :

– كنت ممسكة بالخبز بين أصابعي .

السيدة ريان :

– ما دمت بلهاء فلن تقدمي الخبز إلى حصانك بعد الآن .

من الغد تبعت أمها إلى الإسطبل كي تقدم الخبز إلى الخيول ، وكانت تحمل سلة مملوءة بقطع الخبز على عددها ، فكانت تقدم لأمها

قطعة وتأكل أخرى لشراهتها ، وفي غفلة من أمها وحين وصلتا إلى الخيول الأخيرة لم يبق في السلة شيء من الخبز ، فنادت الأم الخادم المسؤول عن إعداد طعامها وسألته ، فأكد لها أنه ملأ السلة كالمعتاد .. وكادت تتهمه بالإهمال لولا أن التفتت فجأة ورأت فم صوفي مملوءاً وقد غصت بالخبز ، ففهمت ما حدث ، فقالت لها معاتبة :

– أيتها الشرهة ! كنت تلتهمين الخبز من وراء ظهري ؟ كم مرة منعتك من أكل خبز الخيول ونبهتك إلى خطره .. هيا اذهبي إلى غرفتك ولن تساعديني في إطعام الخيول بعد الآن ، ولن يكون عشاؤك سوى الخبز المبلول بالماء ، لأنك تحبين الخبز كثيراً .

ومضت صوفي إلى غرفتها ذليلة فقالت لها المربية :

– ما هذه الكآبة التي تعلو وجهك ؟ ماذا حدث لك ؟ وهل ارتكبت حماقة أخرى ؟

صوفي :

– كل ما في الأمر أني أكلت قطعة خبز من خبز الخيول ، ولم أكن أدري أن في السلة قطعاً معدودة من الخبز .. فعرفت أمي وعاقبتني بالبقاء في غرفتي وأن يكون طعامي الخبز المبلول بالماء .

وكانت المربية تجد أن السيدة ريان تقسو في معاملة صوفي ، فحاولت أن تواسيها وتخفف عنها حزنها ، ولكن صوفي لم تتوقف عن البكاء .

المربية :

– هيا يابنيتي .. لا تبكي ! اعتمدي عليّ .. سأحضر لك عشاء فاخراً . وسيكون ألذ مما تتصورين .. سترين !

صوفي :

– هل تظنين ذلك ؟ لكن ماما حرمتني من أكل أي شيء سوى الخبز .

المربية :

– قالت لك أمك إن عليك أكل الخبز ، ولكنها لم تمنعك من وضع شيء فوقه ، وإذا انتبهت إليك وعاتبتك فقولي لها إني فعلت ذلك من أجلك .

اطمأنت صوفي لهذا الكلام وانتظرت وقت العشاء بفارغ الصبر . وحين طلبت السيدة ريان من المربية أن تحمل الصينية إلى غرفة صوفي ، قالت المربية وقد ظهرت على وجهها ملامح الاشمئزاز :

– هذا طعام لا يصلح للمساجين .. فما بالك بفتاة صغيرة مثل صوفي !

جلست صوفي تنظر إلى الخبز اليابس والماء وقد احمر وجهها غضباً .

وشعرت بالإهانة لأن أمها تعاملها معاملة الطفلة المنبوذة ، ولكن المربية سارعت إلى خزانتها ففتحتها وأخرجت منها قطعة جبن كبيرة ، ووعاء مملوءاً بمربى التفاح الذي تحبه صوفي كثيراً ، وقالت لها :

– أليس هذا ألذ من الخبز اليابس الذي لا يصلح طعاماً لغير الخيول والكلاب ؟

– نعم يا مربيتي .

– فهل تعدينني بألا تأكلي منه ، وتطيعي نصيحة والدتك ؟

– نعم ، أعدك .. ولن أعود إلى أكل الخبز اليابس المخصص للخيول .

وقالت لها المربية إنها إذا اشتهت طعاماً لذيذاً فما عليها سوى أن تأتي إليها وستجد لديها ما ترغب فيه . وكانت صوفي كثيرة الرغبات !

الفصل التاسع

القشدة والخبز الساخن



لقد رأينا كم كانت صوفي شرهة ، وذات يوم تغدت غداء ثقيلاً ، ولكنها سمعت أن صديقة مربيتها التي تعمل في المزرعة قد جلبت إليها شيئاً شهياً ، فشكت لمربيتها الجوع فقالت لها :

– حسناً .. لقد جلبت لي صاحبتي الفلاحة قطعة كبيرة من القشدة ورغيفاً ما يزال ساخناً ، وسأصنع لك منهما شطيرة ، وسترين أنها شهية جداً .

فهجمت صوفي على القشدة والخبز كأنها لم تأكل منذ ثلاثة أيام ، وحين رأتها المربية قالت لها وهي مبتسمة إن الإكثار من الطعام يربك المعدة ، وعليها أن تنتبه إلى هذه النصيحة . حينئذٍ ارتفع صوت السيدة ريان ينادي المربية ، فذهبت إليها . قالت لها السيدة :

– إن صوفي قد بلغت خمس سنوات وعليها أن تبدأ في تعلم الأشغال اليدوية من خياطة وتطريز .

– ولكن أي أشغال تستطيع فتاة صغيرة أن تتعلم ؟

– علميها شيئاً بسيطاً كتطريز منديل أو طرف إزار .. أو ما شئت من هذه الأشغال التي تتلاءم مع عمرها .

فلم تعجب المربية هذه الفكرة إذ كانت تحب صوفي كثيراً ولا تريد أن ترهقها بتعلم التطريز قبل الأوان ، فخرجت وهي سيئة المزاج . حين رجعت إلى الغرفة دهشت إذ رأت صوفي ما تزال تأكل ، ونظرت إلى القشدة فلم تر منها شيئاً ، ولم يبق من الرغيف الكبير سوى نصفه . فهتفت :

– آه .. يا رب ! مستحيل أن تكوني أكلت هذا كله ! ستمرضين .. وحينئذٍ الويل لي من السيدة ريان !

صوفي :

اطمئني يا مربيتي فلن أمرض . لقد أشبعت جوعي فحسب ! وما ألذ القشدة الطازجة والخبز الساخن !

المربية :

– لاشك في أنها لذيذة ، ولكنها ثقيلة على المعدة .. كيف استطعت أن تأكلي كل هذا بمفردك ! آه .. يا رب ! إني خائفة .

صوفي :

– لا تخافي يا عزيزتي .. إني بخير .

حضّرت لها المربية منديلاً صغيراً ورسمت فوقه صورة بسيطة لكي تحمله إلى أمها وتبدأ أول دروسها في التطريز ، فجرت صوفي إلى أمها في القاعة وأعطتها المنديل ، فدربتها السيدة ريان على ضم الخيط في الإبرة وكيف تغرزها في المنديل وتتابع الصورة المرسومة فوقه .

تململت صوفي بادئ الأمر ، ولكن سرعان ما ألِفت العمل ووجدته ممتعاً ومسلياً . وقالت لأمها بعد قليل :

– هل أستطيع أن أريه لمربيتي ؟

– طبعاً .. ولكن لا تتأخري ، يجب عليك أن ترتبي غرفتك .

دهشت المربية إذ رأت التطريز جميلاً بالنسبة إلى فتاة مبتدئة في عمر صوفي ، ولكن قلقها ما يزال يشغلها عليها ، وسألتها إن كانت تحس بألم في معدتها !

فأجابتها فرحة :

– لا .. ولكني لم أعد أشعر بالجوع .

– طبعاً .. بعد كل ما أكلته ! ولكن عودي سريعاً إلى أمك لئلا تؤنبك لتأخرك عليها .

عادت صوفي إلى غرفتها ، ورتبت أدواتها وملابسها ، وأخرجت دميتها وبدأت تلاعبها ، وبدأت القشدة تثقل معدتها فأحست بدوار يسيطر على حركاتها ويؤلم رأسها .

بقيت عدة دقائق جالسة على كرسيها وقد أغمضت عينيها ، ولم تسمع السيدة ريان حركة صوفي فجاءت إلى غرفتها لتجدها شاحبة الوجه وفي أسوأ حال ، فسألتها مذعورة :

– ما بك يا صوفي ؟ هل أنت مريضة ؟

– إني مريضة يا ماما وأشعر بدوار برأسي .

– متى بدأت تحسين بالدوار ؟

– منذ قليل بعد أن أنهيت التطريز .

– وهل أكلت شيئاً ؟

– لا يا أمي .. لم آكل شيئاً .

– أراك تخفين عليّ أمراً .. وأنا لا أحب الكذابات ! سأرى المربية فهي لا تخفي عليّ شيئاً .

غابت السيدة ريان بضع دقائق ثم رجعت وقد ظهر الغضب عليها . وقالت تعاتب صوفي :

– آه .. لقد كذبت علي ، أكلت القشدة والخبز كأنك خرجت من مجاعة ، لقد مرضت وسوف يشتد مرضك بعد حين ، وجزاؤك أنك لن تذهبي معي غداً لزيارة العمة أوبير مع ابن عمك بول . ولن تري كاميل ومادلين ، ولن تمرحي معهما في الغابة ، بل تبقين في البيت وحدك وتأكلين الحساء حتى تبرئي من مرضك .

جست السيدة ريان نبض صوفي وقاست حرارتها وأمرتها بالذهاب إلى النوم ، ثم قالت للمربية التي كانت تحس بالذنب لأنها أطعمت صوفي القشدة والخبز :

– لا تعطيها شيئاً تأكله حتى الغد ، واسقيها منقوع الزهورات ، وأحذرك بأنك إذا عدت لمثل هذه الفعلة فسوف تطردين .

طأطأت المربية رأسها ولم تجب .

وأما صوفي فلم تعد لديها الرغبة في رؤية كاميل ومادلين ، ووجدت أن سريرها هو المكان المناسب لها في هذه الدنيا .. واستغرقت في النوم ، وقضت ليلة مضطربة ، ونامت نوماً متقطعاً تتخلله الكوابيس .

طلع عليها الصباح وهي تتألم ، وتحسنت حالتها حين خرجت إلى الهواء ولكنها لا تستطيع السير على قدميها لدوار في رأسها .

وظلت على هذه الحال ثلاثة أيام كاملة ، وأقسمت أنها لن تتناول القشدة ما دامت على قيد الحياة .

وكانت هذه الحادثة سبباً في استقالة مربيتها واستبدالها بمربية أخرى تعاملها برقة وحنان ، ولكنها لا تسمح لها أبداً بمخالفة أوامر أمها .

الفصل العاشر

السنجاب



كانت صوفي تتنــزه ذات يوم برفقة ابن عمها بول في غابة السنديان القريبة من القصر ، وكانا يجمعان البلوط ليصنعا منه سلالاً صغيرة أو أحذية لدميتها أو زورقاً شراعياً . وفيما كانت صوفي منحنية تلتقط شيئاً من الأرض شعرت ببلوطة تسقط على ظهرها ، ثم تلتها ثانية أصابت رأسها ، نادت صوفي ابن عمها وقالت له :

– انظر يا بول كأن البلوطة مأكولة !

– طبعاً إن كثيراً من الحيوانات تأكل البلوط الساقط على الأرض .

– نعم .. ولكن هذه سقطت من أعلى فوق رأسي ، ولا يمكن أن يأكلها عصفور ، فالعصافير لا تأكل البلوط ولا يمكن أن يأكلها فأر لأن الفئران لا تصعد إلى الأشجار .



فرفع بول رأسه وهتف :

– إنه السنجاب .. انظري إليه .. إنه بين هذين الغصنين .. ينظر إلينا كأنما يهزأ بنا .

كان سنجاباً رائعاً يرتفع وراءه ذيل كثيف حتى يكاد يلامس رأسه ، وهو ينظف وجهه بيديه الصغيرتين ويحرك أنفه وشفتيه من حين لآخر ثم يقفز من غصن إلى غصن .

وهتفت صوفي :

– ما أظرفه ! أتمنى أن يكون لدي واحد مثله للهوت معه ونزهته واعتنيت به واستأنسته وعلمته بعض الألعاب .

فقال بول :

– لا أظنها فكرة جيدة ، فليس من الصعب الإمساك به ، ولكن رائحة السنجاب نتنة في الغرفة وهو يقرض كل شيء .

قالت صوفي :

– لن تكون رائحته نتنة لأني سأنظفه وأنظف قفصه عدة مرات يومياً ، ولن يقرض حوائجي لأني سأبعدها عنه ، ولكن كيف الإمساك به ؟

بول :

آخذ قفصاً واسعاً وأجعل فيه الجوز واللوز والبندق ، وأضعه تحت شجرة وأترك بابه مفتوحاً وأربطه بحبل ، ثم أختبئ وراء الشجرة ، وحين يدخل السنجاب ليأكل أشد الحبل وأغلق الباب عليه .

صوفي :

– أظنه سيخاف ولن يدخل القفص .

بول :

– لا .. على العكس ، فالسناجيب شرهة تحب الجوز واللوز والبندق .

صوفي :

– فلنجرب هذا فوراً ! ولنستأذن ماما فقد لا يعجبها الإمساك بسنجاب .

وهرع الصغيران إلى السيدة ريان يستأذنانها في الإمساك بسنجاب . ولم تعجب هذه الفكرة السيدة ريان ، فقالت لهما :

– وماذا ستفعلان بالسنجاب ، لا شك أنه حيوان جميل ، ولكنه نتن الرائحة ويقرض ما يراه ويتسلق على الأثاث !

وما زال الصغيران يرجوانها حتى أذنت لهما ، فأسرعا إلى السقيفة حيث تحفظ الأشياء القديمة ووجدا فيها قفصاً قديماً ، فأنزلاه إلى الباحة وساعدتهما الخادمة في تنظيفه ، ووضعا الجوز واللوز ورجعا إلى الغابة ،

قالت صوفي قلقة :

– عساه لا يزال في الغابة ! فقد أضعنا كثيراً من الوقت .

فقال بول :

– اطمئني فلن يبتعد كثيراً ، ولعله يسكن هنا ، وسوف نبحث عنه بين الأشجار المجاورة .

وحين وصلا إلى شجرة السنديان لم يجداه ، وبحثا عنه بين الأشجار المجاورة فلم يجداه أيضاً ، وكادت الدموع تطفر من عيني صوفي حينما أصابتها بلوطة على رأسها . وهتفت :

– ها هو ذا .. ها هو ذا ! لنضع القفص في مكانه .

فقال بول :

– انتظري حتى أربط الحبل وأجربه .

كان الباب ينغلق بسهولة ، فوضعا القفص على الأرض وأمسك بول بالحبل واختبأ وراء شجرة .

قالت صوفي بصوت هامس :

– ها هو قد أقبل .. إني ألمح ذيله وراء الغصن الغليظ .

وكان السنجاب قد سمعهما فمد رأسه يدفعه الفضول ، ليعرف ما يحدث .

فقال بول بهدوء :

– حسناً جداً يا صاحبي ! سنقبض عليك فوراً ، انظر إلى الجوز واللوز الذي في القفص ، ألا تشتهيه ؟ كن شرهاً وتعرف عاقبة الشراهة .

لفت السنجاب رأسه يمنة ويسرة ورأى القفص على الأرض ، فتأمله بعين فاحصة وأعجبه الجوز واللوز الذي بداخله .

وحينما سكت الطفلان وكفّا عن الحركة هبط السنجاب بضعة أغصان ، ثم توقف وهو يتلفت في كل الاتجاهات ، وهبط أغصاناً أخرى وبدأ يقترب من القفص شيئاً فشيئاً .

ثم قفز إلى القفص قفزة واحدة وتفحصه جيداً ، ومد أظافره من خلال القضبان لعله يتناول الجوز واللوز ولكنه لم يستطع طبعاً . فزادت رغبته فيها ، فدار حول القفص باحثاً عن وسيلة للوصول إلى ما يتمناه فرأى الباب مفتوحاً .

ظل السنجاب بضع لحظات أمام الباب ينظر إلى الحبل الممدود ، وكان قلبا بول وصوفي يخفقان بشدة وقد حبسا أنفاسهما ، وفجأة عزم على الدخول بقفزة واحدة ، وما كاد يطأ أرض القفص حتى سحب بول الحبل وانغلق الباب وانحبس السنجاب داخله .

بلغ من الفزع أن رمى اللوز الذي اشتهاه ، وجعل يضرب جدران القفص باحثاً عن منفذ منه . ياله من مسكين ، فقد دفع ثمن شراهته غالياً ! واندفع بول وصوفي إلى القفص وهما يهتفان فرحَين .

أحكم بول إغلاق الباب ، وحمل السجين إلى البيت مزهواً ، وسبقته صوفي تنادي بأعلى صوتها مربيتها تدعوها إلى النظر إلى صديقها الجديد . ولم تكن المربية شديدة الحماسة للوافد الجديد وقالت :

– ماذا سنفعل بهذا الحيوان الصغير ؟ سوف يعض ويصدر ضجيجاً عالياً ، كانت فكرة سيئة اصطياد هذا الحيوان المزعج .

صوفي :

– لا يا مربيتي ! ليس حيواناً مزعجاً ، فلن يعض أحداً ولن يصدر أصواتاً عالية لأني سأهتم به وأعتني بطعامه .

المربية :

– إذن سيموت البائس جوعاً .

صوفي :

– يموت جوعاً ؟ لن يموت بالتأكيد ، لأني سأطعمه الجوز واللوز والخبز والسكر .

المربية :

– يا لها من فكرة ! أن تطعم السنجاب السكر حتى تسوس أسنانه !

بول :

– سيكون أول سنجاب تسوس أسنانه .. ها .. ها ..

صوفي :

– لا .. لن تسوس أسنان سنجابي بل سيكون أجمل فصيلته !

المربية :

– سأبحث عن بعض التبن لينام عليه . فالمسكين مذعور وليس فرحاً بسجنه .

صوفي :

– سأمسد شعره بحنان حتى يألفني ، وأخبره بعد ذلك أننا لا نريد به شراً .

ومدت صوفي يدها إلى القفص فخاف السنجاب وتراجع إلى الطرف الآخر من القفص ، فأدخلت ذراعها لتمسك به ولكن السنجاب المذعور عض أصابعها ، فأطلقت صرخة ألم عالية وسحبت يدها والدم يسيل منها ، وظل الباب مفتوحاً فانتهز السنجاب الفرصة وهرب من القفص ، وجرى بول والمربية وراءه على حين كانت صوفي

تصرخ وتبكي ، والسنجاب يقفز في أنحاء الغرفة ، فإذا حاصروه وظنوا أنهم سيمسكون به هرب إلى ناحية أخرى .

نسيت صوفي إصبعها وبدأت تساعد بول والمربية في هذا الصيد . واستمر هذا نصف ساعة وكاد السنجاب يستسلم لولا أنه أبصر النافذة مفتوحة فقفز منها ثم صعد إلى السطح المصنوع من الحجر اللامع وقد سيطر عليه الخوف .

قالت صوفي :

– ماذا سنفعل الآن ؟

فأجابتها المربية :

– لا تقتربي منه .. أرأيت كيف عضك ؟

صوفي :

– عضني لأنه لم يتعرف عليّ بعد ، ولكنه حين يراني أطعمه وأنظف قفصه فسوف يألفني ويحبني .

بول :

– لا أظنه يحبك أبداً ، فهو حيوان نشأ في الغابة واعتاد أن يعيش حراً ولا يمكنه أن يألف الأقفاص . وكان علينا أن نمسك بسنجاب صغير لم يتعود على حياة الغابة .

صوفي :

– لنحاول الإمساك به مرة ثانية ، ارم عليه الكرة حتى تجبره على النـــزول ، وسوف نقبض عليه بسهولة فقد نال منه التعب .

بول :

– لا أظنه سينـــزل ، ولكن سأحاول .

وأسرع إلى البيت وجلب الكرة وصوبها إلى السنجاب ورماها بكل قوته فاصطدمت برأسه وفقد توازنه فانزلق عن السطح وهو يطلق صرخة عالية ، ثم هوى في الباحة فتحطمت عظامه ، وأسرع بول وصوفي للإمساك به فوجداه قد مات .

صوفي :

– أيها الشرير ! لقد قتلت سنجابي .

بول :

– إنها غلطتك . أنت التي طلبت مني أن أرميه بالكرة لأجبره على النـــزول .

صوفي :

– كان عليك أن تخيفه ، لا أن تقتله !

بول :

– لم تقتله ضربة الكرة بل سقوطه من السطح .

صوفي :

– ولكنك قتلته وضاع كل تعبنا .

بول :

– آه .. إنك أغبى من هذا السنجاب ، ويسعدني أنك لم تقبضي عليه لئلا تزيدي في عذابه .

صوفي :

– أنت ولد شرير ! لن ألعب معك أبداً ولن أطلب منك شيئاً .

بول :

– هذا أفضل ، وهكذا أستريح من طلباتك ولا أعود أساعدك في ارتكاب حماقاتك .

المربية :

– هيا .. يا أولاد . فكروا في الجريمة التي حدثت بدلاً من الشجار بينكما ، وكان الأجدر بكم أن تتركوه يعيش حراً في الغابة ، وسوف أستدعي البستاني ليدفنه ، واصعدي أنت يا صوفي إلى غرفتك وضعي يدك في الماء البارد وسأساعدك على تضميدها .

فعلت صوفي ما طلبت منها المربية ، وساعدها بول على تضميد يدها لأنه طفل طيب القلب لا يحقد على أحد .

في المساء كان والدا صوفي منـــزعجين بعد أن علما أن السنجاب قد مات ، وعاتبا صوفي وبول على حماقتهما .

وأعيد القفص إلى مكانه في السقيفة ، ولم تعد تفكر صوفي في اصطياد السناجيب ووضعها في الأقفاص .

الفصل الحادي عشر

الشاي



اليوم هو 19 تموز عيد ميلاد صوفي ، وهو تاريخ هام في حياة هذه الفتاة الصغيرة . وقد وعدها أبواها بهدية في هذه المناسبة ولكنها لم تعرف ما هي . لذلك كانت تتحرق شوقاً إلى معرفتها وتتلوى بين يدي مربيتها وهي تمشط لها شعرها .

وقد استيقظت صوفي باكراً لتأخذ هديتها ، وكلمت المربية قائلة :

– يكفي .. لقد سرحت شعري جيداً ، يجب أن أسرع لرؤية ماما .

المربية :

– انتظري حتى أنظف ملابسك بالفرشاة وأرتب ملابسك ، يجب أن تبدئي السنة الخامسة من عمرك وأنت في أزهى حالة .

صوفي :

– آي .. آي .. لقد آلمتني .

المربية :

– لأنك تتحركين في كل اتجاه ، فكيف أمشط لك شعرك وأنت تتحركين ؟ وحين أنهت صوفي زينتها وارتدت ثوبها الجديد ، أسرعت تجري للقاء أمها بكل ما تسمح لها به سنواتها الخمس .

قالت لها السيدة ريان وهي تبتسم للقائها :

– صباح الخير يا صوفي ! لقد بكرت في الاستيقاظ هذا الصباح ، ولا أظنك نسيت أنه عيد ميلادك ، وسأعطيك هذا الكتاب وآمل أن يعجبك !

شكرت صوفي أمها وتناولت منها الكتاب الذي كان ضخماً ومجلّداً باللون الأحمر ، وينبغي القول إن صوفي لا تعرف القراءة ولا تستهويها الكتب التي ليس فيها صور ، وساءلت نفسها : ماذا أفعل به ؟ ولا بد أن أتعلم القراءة حتى أستخدمه ، ولا أدري إن كنت سأتعلمها !

السيدة ريان :

– لا تبدو عليك الفرحة لهذه الهدية ! ولكنه كتاب جميل جداً يتحدث عن حياة الرسامين ، ولو كنت تعرفين القراءة لتمتعت به .

فقالت صوفي وهي تعتقد عكس ما تقول :

– طبعاً يا ماما !

فقالت لها أمها :

– افتحيه وانظري فيه على الأقل .

وحاولت أن تفتحه فلم تقدر ، وكادت ترميه لولا أن أمها تناولته منها وهي تطلق ضحكة عالية ، إذ كان كتاباً مختلفاً عن سواه ولا يفتح إلا بالضغط على زر في وسطه . وحين فتحته وجدته علبة تحتوي على أقلام ملونة وأنابيب من معجون الرسم وفراشيّ من مختلف الأحجام .

وهتفت صوفي وهي تكاد تطير فرحاً :

– شكراً يا أمي .

واندفعت إليها تعانقها وتقبلها .

فقالت لها أمها :

– لقد رأيت الخوف على وجهك حين حسبته كتاباً لا تقدرين على قراءته ، ولكنه صندوق رسم كما ترين ، وأريدك أن تتعلمي الرسم بحضور كاميل ومادلين وبول الذين دعوتهم اليوم .

وقالت صوفي :

– ما أسعدني !

– سيأتون حوالي الساعة الثانية ، وهذه هدية العمة أوبير ، وقد طلبت منك أن تفتحيها الآن لئلا يطول انتظارك .

وفتحتها صوفي ووجدتها طاقماً كاملاً من أواني الشاي وهو خاص بالدمية ، ولكنه كبير الحجم بحيث يصلح للكبار أيضاً ، وكان لامعاً يشبه لونه لون الفضة ، فحملت صوفي الكتاب وطاقم الشاي وقالت لأمها وهي متوجهة إلى غرفتها :

– هل أستطيع أن أصنع الشاي لأصدقائي حين يأتون ؟

فأجابتها السيدة ريان قائلة :

– لا .. لا أسمح لك باللعب بالماء الساخن والسكر لأنك ستحرقين أصابعك وتلوثين الأثاث ، ولكن تظاهري بأنك تصبين الشاي .

ولم تجبها صوفي ولكنها لم تكن مبتهجة ، وقالت لنفسها :

– ما فائدة طاقم الشاي إذا لم أستخدمه لصب الشاي ؟ سيضحك عليّ أصدقائي ، ولكن يجب أن أجد شيئاً يعوض الشاي .. سأسأل مربيتي .

صوفي :

– انظري يا مربيتي إلى الهدايا التي حصلت عليها !

المربية :

– أوه .. ما أجمل طاقم الشاي هذا ! ستلعبين به مع صديقاتك ودميتك ، ولكن لا أحب هذا الكتاب ، ماذا تفعلين بالكتاب وأنت لا تعرفين القراءة ؟

صوفي :

– ها .. ها .. لقد خدعتُك كما خُدعت .. فليس هذا كتاباً بل علبة تحتوي على أدوات الرسم ومعداته .

وشرحت صوفي للمربية كيفية استخدامها ، ثم طلبت منها المساعدة لتقديم شيء يؤكل أو يشرب إلى أصدقائها بحيث تستخدم طاقم الشاي .

فأجابتها المربية :

– لا يا صوفي ! هذا مستحيل ، إن أمك قد حرّمت عليّ أن أعطيك شيئاً مَنَعَتْهُ عنك .

جلست صوفي كئيبة مفكرة ، تبحث عن طريقة لاستخدام طاقم الشاي استخداماً فعلياً . وشيئاً فشيئاً أشرقت على وجهها ابتسامة وخطرت لها فكرة .

هل هي فكرة جيدة ؟ إنها إحدى أفكار صوفي العبقرية !

بعد الغداء ، امتنعت صوفي عن مرافقة أمها في نزهتها ، وطلبت الإذن منها بالبقاء بغرفتها استعداداً لاستقبال أصدقائها .

وضعت على طاولة أدوات الرسم بما فيها من أقلام ملونة وأنابيب ألوان وفراشي وأوراق . ووضعت على طاولة ثانية طاقم الشاي من فناجين وأطباق وسكّرية وإبريق شاي وإبريق حليب ، وقالت :

– الآن .. سأبدأ بإعداد الشاي .

قطفت من الحديقة بعض الأعشاب والأزهار ووضعتها في إبريق الشاي ، وغرفت الماء من القصعة المخصصة لشرب الكلاب وصبته في الإبريق .

ثم قالت :

– والآن سأصنع بعض القشدة .

بحثت في المستودع فوجدت علبة تحتوي مادة بيضاء تستخدم لتلميع الأواني الفضية وهي شبيهة بالصابون ، فأخذت منها قطعة ووضعتها في إبريق الحليب وأضافت إليها شيئاً من ماء الكلاب وحركته جيداً ، ثم وضعت على الطاولة إبريق القشدة .

وقالت :

– لم يبق سوى السكر .

بحثت في الحديقة عن قطع من الحجارة الطباشيرية ووضعتها في السكرية بعد أن دقتها حتى أصبحت ناعمة .

تأملت صوفي إنجازها العظيم وقالت لنفسها :

– لن يشك بول أو مادلين أو كاميل في أنه شاي حقيقي .

وجلست تنتظر أصدقاءها وهي معجبة بنفسها ، وتدور حول الطاولة الصغيرة ترتب الفناجين فوقها وتقول :

– يا لها من فكرة رائعة ، لا تقدر عليها سوى صوفي العبقرية !

بعد ساعة جاء أصدقاؤها فعانقتهم وتمنوا لها عيد ميلاد سعيداً ، ثم توجهت بهم إلى غرفتها وأطلعتهم على الهدايا ، وأما الكتاب فقد أدهشهم مثلما أدهشها وطلبوا منها أن تصب لهم الشاي ، ولكنها فضلت انتظار الساعة الثالثة موعد شرب الشاي ، وانصرفوا أثناء ذلك إلى تلوين الرسوم .

رفع بول رأسه عن الورقة وقال بصوت مرتفع :

– والآن .. حان موعد شرب الشاي .

ورددت وراءه الفتيات :

– نعم .. نعم .. إنه موعد الشاي .

كاميل :

– أنت يا صوفي المضيفة وسوف تصبين الشاي !

صوفي :

– طبعاً .. أنتم ضيوفي .. وليقرب كل منكم فنجانه .. هذا هو الشاي وهذه هي القشدة .. وكم تريدين من السكر ؟

وطلب كل منهم السكر بحسب رغبته ، وقالت لهم :

– لنشرب الآن !

قالت مادلين :

– ما هذا السكَّر ؟ إنه لا يذوب .

بول :

– ولكن الشاي بارد يا صوفي !

صوفي :

– لأني صنعته قبل قدومكم بوقت طويل ولكنه لذيذ الطعم .

وذاقت كاميل الشاي البارد ، وقطبت وجهها :

– ما هذا يا صوفي ، ليس هذا شاياً !

مادلين :

– ماذا وضعت فيه يا صوفي ؟ هل تريدين تسميمنا ؟

بول :

– ستشربين أنت شايك الرائع هذا .

صوفي :

– لا شيء يعجبكم حتى الشاي الذي بذلت جهدي في صنعه وتحضيره !

كاميل :

– اعترفي بأن شايك أسوأ ما يكون .

مادلين :

– ولم أذق في حياتي شاياً أسوأ منه طعماً .

فاندفع بول وأمسك صوفي وهو يجبرها على شرب الشاي ، ولكنها قاومته فانسكب السائل الأبيض أو ما تسميه القشدة على ملابسها الجديدة ، فصرخت وخمشت وجهه فركلها بقدمه ، وتدخلت كاميل ومادلين لفض النــزاع وارتفعت الأصوات وعمت الفوضى .

دخلت الأم فجأة وقد جذبتها هذه الأصوات ، وبرزت في ساحة المعركة ، ولكن الأطفال توقفوا عن الشجار وجلسوا جامدين .

وسألت السيدة ريان بصوت خائف وقد تبعتها السيدة فلورفيل والسيدة أوبير :

– ماذا يحدث هنا ؟



وطأطأ الأطفال رؤوسهم .

السيدة فلورفيل :

– ماذا حدث يا كاميل ؟ ما هذه المعركة ؟

كاميل :

– الحقيقة يا ماما أننا لا نتشاجر !

السيدة فلورفيل :

– كيف هذا ؟ حين دخلنا كنت تمسكين بيد صوفي ومادلين تجذب قدم بول !

كاميل :

– لكي يمنعها من اللعب بعنف .. هذا كل شيء !

السيدة فلورفيل :

– وهل تسمين هذا لعباً ؟

السيدة ريان :

– أظن أن صوفي تشاجرت مع بول كالعادة ، وتدخلت كاميل ومادلين لفض النـــزاع .. أليس كذلك يا كاميل ؟

كاميل :

– نعم .. هذه هي الحقيقة يا سيدتي .

السيدة أوبير :

– أليس عيباً عليك أن تتصرف بهذه الطريقة يا بول ؟ وهذا عيد ميلاد صوفي ..

بول :

– لقد حضّرت لنا صوفي شاياً له طعم السم .. وحين اعترضنا عليها وصفتنا بأوصاف لا أجرؤ على النطق بها .

تناولت السيدة ريان إبريق القشدة وغمست فيه إصبعها ، ثم قطبت حاجبيها وهي تتذوق هذا المزيج العجيب :

– من أين جئت بهذا السائل الرهيب يا صوفي ؟

صوفي :

– حضّرته بنفسي .. يا ماما .

السيدة ريان :

وماذا استخدمتِ لتحضيره أيتها الشاطرة ؟

صوفي :

– مسحوق تنظيف الأواني الفضية وماء الكلاب .

السيدة ريان :

– والشاي .. كيف أعددته ِ؟

صوفي :

– من أعشاب الحديقة الممزوجة بماء الكلاب أيضاً .

السيدة ريان :

– هذه بداية حسنة لأعوامك الخمسة يا صوفي ! حضّرت لأصدقائك هذا السم ثم تشاجرت مع بول ، وأول عقوبة لك حرمانك من اللعب بطاقم الشاي لأنك عصيت أمري ، وكنت أود لو حبستك في غرفتك لولا أني سأفسد على أصدقائك احتفالهم بك .

وانصرفت السيدات وهن يضحكن من هذا الشاي الذي أعدته صوفي بطريقتها الخاصة ، وتمنت السيدة ريان لو أنها سمحت لها باستخدام شاي حقيقي لئلا تسمم الأطفال .

بقي الأطفال وحدهم ، فسارعت مادلين لمصالحة بول وصوفي ، وخرج الجميع للعب في الحديقة ، فأمسك بول بعدد من الفراشات وحبسها في علبة صغيرة ، ثم عادوا إلى البيت وجهزوا للفراشات مسكناً مريحاً من أوراق الأزهار ، وأراد بول أن يقدم العلبة هدية إلى صوفي ولكنها أبت أن تأخذها وأصرّت عليه أن يحملها معه إلى بيته ، فقد كان في غاية الشوق إلى الاحتفاظ بها .

الفصل الثاني عشر

الذئاب

رأينا من الحكايات السابقة أن صوفي لم تكن فتاة مطيعة ، ولا يؤدبها ما يحصل لها من الأذى ، وقد أصابتها بعض المصائب التي كادت تودي بها .

اليوم التالي على عيد ميلادها ، وبعد حادثة الشاي الذي أعدته لأصدقائها ناداها أمها وقالت لها :

– لقد وعدتك حين تبلغين الخامسة أن أصحبك معي في نزهتي عبر الغابة إلى (سيدفيل) ، وإذا أردت الذهاب معي فعليك ألا تتأخري عني لئلا تضيعي .

فرحت صوفي بالتنـــزه مع الكبار ، ووعدت أمها بأن تتبعها لئلا تضيع في الغابة ، ووصل بول ورغب في الانضمام إلى هذه النـــزهة ، فازدادت صوفي فرحاً .

مشى الاثنان وراء السيدة ريان بعض الوقت ، وكانا يرميان بأغصان يابسة إلى الكلاب الثلاثة الضخمة التي اصطحبتها السيدة ريان معها ، فتحملها الكلاب إليهما وهي تهز أذنابها ، وكانا يجمعان الأزهار دون أن يتأخرا عن متابعة السيدة ريان ، وفجأة لمحت صوفي شجيرات الفريز فهتفت :

– كم أتمنى أن أقطف من هذا الفريز .. إنه شهي !

وسمعتها أمها فمنعتها من التوقف ، فتحسرت صوفي وهي تنظر إلى الفريز ، فقال لها بول :

– لا تنظري إليه .. وسوف تنسينه بعد قليل .

صوفي :

– ولكن هل رأيت لونه الأحمر . إنه يسيل كالعسل .. سأقطف واحدة فقط ولن أتأخر عن متابعة ماما .. وستأكل أنت منه أيضاً .

بول :

– لا .. لا أريد مخالفة أوامر عمتي وأخاف أن أضيع في الغابة .

صوفي :

– لا خطر علينا من ذلك . لقد منعتنا أمي لكي تخيفنا .. وسوف نعرف طريقنا إن تأخرنا عنها . وما علينا سوى السير في هذه الطريق .

بول :

– أنت مخطئة .. فالغابة كثيفة وقد نضل فيها الطريق .

صوفي :

– افعل ما تريد أيها الخوّاف ! وأما أنا فإني أتوقف عند أول شجيرة فريز أصادفها وآكل شيئاً منها .

بول :

– لست خوافاً يا آنسة صوفي ! وإنما أنت شرهة وتعصين أوامر أمك ، ضيّعي طريقك إن شئت ، ولكني سأتبع خطا عمتي .

كانت السيدة ريان تحث خطاها تتبعها الكلاب الثلاثة أو تسبقها وهي تتقافز حولها وتنظر من حين إلى آخر لترى إن كانت صوفي وراءها ، وأما صوفي فقد لمحت شجيرة فريز فتوقفت عندها وقطفت بعض الحبات وأكلتها . ثم رأت شجيرة أخرى وثالثة .. فتأخرت عن أمها .

ظهر القلق على الكلاب فرفعت آذانها تتسمّع ، ثم اقتربت من السيدة ريان وهي تنبح نباحاً خافتاً وكأنها خائفة من خطر ما . ثم ابتعدت نحو الأشجار وعادت فالتصقت بالسيدة ريان حتى تنبهت إليها وتساءلت عن سبب خوفها . وتأملت فيما حولها ، فلمحت شبحاً يختفي

بين جذوع الأشجار ، فالتفتت إلى الطفلين تدعوهما للاقتراب منها ، فلم تجد سوى بول وحده وسألت :

– أين صوفي ؟

بول :

– لا أعرف يا عمتي ، ولكني أظنها تأخرت لقطف بعض الفريز من الغابة .

السيدة ريان :

– يا للمصيبة ! لنعد إليها ونجدها فوراً ، في الغابة ذئب ..

أصبحت الذئاب في أيامنا هذه نادرة الوجود في الغابات ، ولكنها أثناء حدوث هذه القصص كانت منتشرة وخاصة في الغابات الكثيفة ، وهي تخاف الرجال ولكنها تتصرف بشجاعة في مواجهة الأطفال .

رجعت السيدة ريان تتبعها الكلاب الثلاثة ومعها بول وقد سيطر عليه الرعب ، فرأت صوفي من بعيد منحنية على شجيرات الفريز وقد أشرق وجهها فرحاً بما تلتهمه منه ، في تلك الآونة نبحت الكلاب نباحاً عالياً وهجمت إلى ناحية صوفي ، وظهر في الوقت نفسه ذئب رمادي فاغراً فاه وعيناه تقدحان شرراً بالقرب من صوفي ، وكان ضامر البطن

نحيلاً لشدة جوعه ، ولم يهرب في الحال إذ ظن أن لديه من الوقت ما يكفي لاختطافها قبل وصول الكلاب .

ولكن الكلاب الشجاعة أسرعت في جريها وهجمت على الذئب حينما أمسك بفستان صوفي وعضته فأطلق الفستان ، ونشبت معركة ضارية بين الحيوانات تحت بصر السيدة ريان وبول وصوفي المذعورين .

أحس الذئب أن الكلاب مصممة على افتراسه فتراجع إلى الغابة وهو يعوي ناجياً بجلده ، وارتفع نباح الكلاب تعلن عن انتصارها ، ووقفت تحت شجرة تلهث وتلعق جراحها وتدور حول السيدة ريان وبول وصوفي ، كأنما تشهدهم على بطولتها ، فمسدت السيدة ريان رؤوسها ورجعت إلى طريق القصر عائدة أدراجها .

لم تقل السيدة ريان لصوفي شيئاً ، وكانت صوفي ترجف خوفاً ولا تكاد تحملها قدماها ، وقد أوشكت أن تفقد وعيها ، ولم يكن بول أقل منها خوفاً . ولا بد من القول إن السيدة ريان كانت مذعورة ولكن واجبها يفرض عليها ألا تظهر ضعفها وأن تتماسك حتى تصل إلى القصر . حينما وصلوا إلى النهر بعيداً عن الغابة قالت :

– لنقف هنا قليلاً ونشرب من ماء النهر البارد ولنغسل وجوهنا وأطرافنا .. فقد أصابنا الخوف جميعاً .

وانحنت السيدة ريان إلى ماء النهر فشربت منه وغسلت وجهها وأطرافها ، وساعدت الطفلين على الشرب ، وغطست رأس بول وصوفي في الماء حتى انتعشا وزال عنهما بعض الخوف .

وأما الكلاب الشجاعة فلم تنتظر إشارة من السيدة ريان ، بل ارتمت في الماء حتى بطونها وغسلت جراحها وشربت منه حتى ارتوت .

بقي الجميع عشر دقائق على هذه الحال ، ثم توجهوا إلى القصر .

السيدة ريان :

– صوفي ! هل عرفت يا بنيتي لِمَ كنت أطلب منك ألا تتوقفي أو تبتعدي عني ؟

صوفي :

– نعم يا ماما .. إني شديدة الأسف لذلك ، وأنت يا بول ! أرجوك أن تسامحني إذ وصفتك بالخوّاف .

السيدة ريان :

– خوّاف ؟ هل وصفت بول بالخوّاف ؟ ألم تلاحظي يا صوفي أننا حين جرينا نحوك كان بول أسبقنا إليك ؟ ألم تريه كيف أمسك غصناً كبيراً بكلتا يديه وهجم على الذئب قبل وصول الكلاب ؟ ألم تريه كيف وقف أمامك ليدفع الذئب عنك لئلا يصيبك بأذى ؟ هل يفعل هذا من

كان في مثل سنه ؟ ثم تجرئين على وصفه بالخواف ؟ يا لك من فتاة ناكرة للجميل !

كان بول يسمع كلام السيدة ريان وقد احمر وجهه من الخجل ، ولم يكن يتصور نفسه أنه قام بهذا الأعمال ، فقد كان خائفاً ولكنه تغلب على خوفه وهجم على الذئب بغصن شجرة ، ولولا أنه كان يحب ابنة عمه الصغيرة لما فعل هذا ، حينئذ اندفعت إليه صوفي وتعلقت بعنقه وهي تقبله وتقول له :

– شكراً يا عزيزي بول ، لن أنسى فضلك ما حييت ، وقد كنت حمقاء حين وصفتك بالخوّاف ، وقد برهنت على شجاعتك وحبك لي .

حينما وصلوا إلى القصر عجب الجميع لشحوب وجوههم ، وتساءلوا عن السبب الذي جعل فستان صوفي ممزقاً ، وحكت لهم السيدة ريان ما لاقوه في الغابة فأطلقوا صرخات الرعب والأسف ، وهنؤوا بول على شجاعته وثبات قلبه وطاعته لعمته ، وعاتبوا صوفي على طيشها وشراهتها ومخالفتها لنصيحة أمها . وكوفئت الكلاب على شجاعتها بوجبة دسمة من اللحم وقطع كبيرة من العظام .

من الغد أهدت السيدة ريان لبول ملابس سلطان تركي بثوبه وعمامته وسيفه ، فدخل على صوفي بهذه الهيئة ، فخافت منه ، ولكن سرعان ما عرفته وارتفعت ضحكاتهما .

لم تعاتب السيدة ريان صوفي ، فقد كفاها ما لقيته من خوف . وخافت عليها أن تصاب بمرض يقعدها الفراش ، ولكن صوفي تماسكت ولم تصب بأذى ، ولكن الأمر المؤكد أنها لن تعود إلى فعلتها أبداً .

الفصل الثالث عشر

خدوش الوجه



من مساوئ صوفي التي لم نذكرها أنها سريعة الغضب لا تضبط أعصابها .

ذات يوم كانت صوفي جالسة إلى الطاولة تلهو بتلوين الصور ، وفي الجانب الثاني من الطاولة جلس بول يقص الورق ليصنع منه سلالاً وكراسي ، وحرك قدميه فتحركت الطاولة واهتزت يد صوفي ، فصرخت صوفي في وجهه :

– كيف أرسم وأنت لا تتوقف عن الحركة !

لم يجبها بول ، ولكنه حاول أن يكون حذراً ، ولم ينتبه لنفسه بعد دقائق إذ ضرب الطاولة بقدمه مرة ثانية ، فصرخت صوفي :

– إنك لا تطاق ، لقد أفسدت كل ما رسمته .

بول :

– وما هذه الرسوم الرائعة التي تخافين عليها ؟

صوفي :

– لا يهمني رأيك في رسومي .. وكل ما أطلبه منك أن تتوقف عن الحركة .

بول :

– لا تحب قدماي أن تتوقفا عن الحركة ولا أستطيع السيطرة عليهما .

صوفي :

– سأربط قدميك بالحبل إذاً ، وإذا لم تتوقفا طردتك من غرفتي .

بول :

– حقاً ؟ حاولي وسترين ما تفعل بك قدماي .

صوفي :

– هل تريد أن تركلني لأني أطلب منك الهدوء .

بول :

– طبعاً لأنك تهددينني بالطرد !

فلم تتمالك صوفي أعصابها ، وتناولت الكأس الذي تغسل فيه فرشاة الألوان وصبته على رأس بول ، فرفس بول الطاولة بقدمه وقلب كل ما عليها .

فنهضت صوفي على قدميها ومدت أظافرها وخمشت خد بول حتى سال الدم منه ، وصاح بول متألماً ، ولكن صوفي أشبعته ضرباً بقدميها ولكماً بقبضتي يديها ، ولم يكن بول يحب الشجار ويخاف أن يؤذي صوفي فترك الغرفة ودخل حجرة صغيرة وأغلق بابها على نفسه ، فانهالت صوفي على الباب ضرباً بقدميها ، وهي تهدده وتتحداه أن يفتح الباب ، ولكنه لم يفتحه ، فتعبت من الصراخ وهدأت ، وحين سيطرت على أعصابها وعاد إليها هدوؤها ، ندمت على تسرعها ، وتذكرت أن ابن عمها بول ، قد خاطر بنفسه منذ أيام لإنقاذها من براثن الذئب ، وفكرت : آه يا رب ! كيف أفعل لأصالح بول ؟ ولا أحب أن أقول له اصفح عني فهذا مهين لي ، ولا يمكن أن يبدأ هو بمصالحتي لأني كنت البادئة في الاعتداء عليه ، هذا واضح .

مشت إلى باب الحجرة التي اختبأ فيها بول وطرقته بخفة وهدوء ، ولكنه لم يستجب لها ، ونادته بصوت عطوف :

– بول .. افتح لي أرجوك !

ولم يفتح الباب ، فتابعت راجية أن يستجيب لندائها :

– أرجوك بول ! أعدك أن لا أفعلها ثانية .. أرجوك .. !

وارب بول الباب حذراً لأنه يعتقد أن صوفي غير قادرة على التوبة .

ويخشى أن تكون هازئة به ، وسألها :

– هل هدأت أعصابك ؟

بالتأكيد .. وإني آسفة على ما فعلته ، وكنت شريرة معك .

فتح بول الباب على مصراعيه ، فأطلقت صوفي صرخة فزع إذ رأت الدم يسيل على خده ، وتعلقت بعنق ابن عمها وهي تقول :

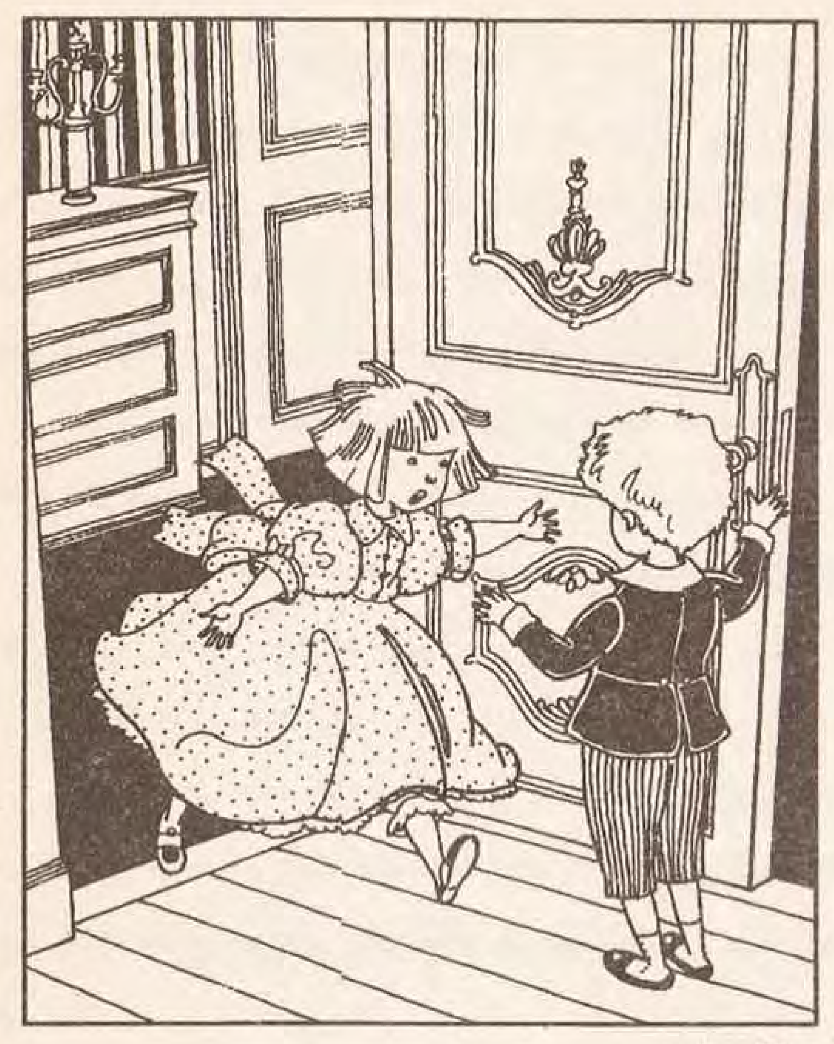
– آه .. يا صديقي المسكين ! لقد آذيتك وخمشت خدك .. كيف سأشفيه لك الآن ؟

– لا بأس علي ، سيزول حين أغسله بالماء ، اجلبي وعاءً ومنشفة ، سأغسله ولن يترك أثراً .

وفعلت ما طلب منها ، فغسل وجهه وجففه وأزال عنه الدم ، ولكن أثر أظافرها ظل ظاهراً على خده ، وبدت الكآبة على صوفي ، وانتحبت قائلة :

– ماذا ستقول أمي ؟ ستغضب مني وتعاقبني .

وحزن بول لبكائها وأسفها وأراد أن يجنبها عقوبة أمها ، ففكر في طريقة تبعدها عن هذه العقوبة .



قال بول :

– لا أستطيع أن أقول إني سقطت على شجرة شوك .. فلن يصدقني أحد .. ولكن انتظري وسترين !

وجرى بول وتبعته صوفي وهي تصيح :

– أين أنت ذاهب ؟

مازال بول يجري وصوفي تتبعه حتى وصلا الغابة القريبة ، ولم ينطق بول بكلمة ، بل ارتمى فوق شجيرة شوك ، وجعل يتقلب عليها حتى أصيب وجهه كله بالخدوش ، واختفى أثر أظافر صوفي بينها .

رأته صوفي على هذه الحال والدم يسيل من وجهه كله ، فانفجرت باكية وهي تقول :

– يا عزيزي بول أتفعل هذا كله من أجلي ؟ وتخاف أن أعاقب على غضبي ؟ يالك من ابن عم طيب !

قال لها بول :

– لنسرع إلى البيت حتى أغسل وجهي ، ولا تحزني يا صوفي ، غداً سيزول كل أثر لها ، وأطلب منك شيئاً واحداً هو ألا تقولي لأحد إنك خمشتني وإلا ضاع تعبي هباءً ، ولم نستفد من هذه الخدوش شيئاً .. هل فهمت ؟

فعانقته وقالت له :

– أعدك بذلك وسأفعل ما تأمرني به .

ورجعا إلى البيت وغسل بول وجهه ثانية ، وحين دخلا القاعة أطلق الجميع صرخات الدهشة لرؤية وجه بول منتفخاً وعامراً بالخدوش .

وقالت السيدة أوبير :

– كيف حدث هذا يا ولدي ؟ هل سقطت فوق شجيرة شوك ؟

بول :

– هذا ما حدث بالضبط يا ماما ، وحاولت الخروج من الشجيرة فانخدش وجهي ويداي .

السيدة أوبير :

– يا لك من ولد طائش ! لا يكفيك أن تسقط في شجيرة الشوك ، بل تزيد المصيبة بالتمرغ فيها !

السيدة ريان :

– وأنت يا صوفي أين كنت ؟ ألم يكن جديراً بك أن تساعدي ابن عمك .

بول :

– كانت صوفي بعيدة عني يا عمتي ولم تصل إليّ إلا بعد أن نهضت ، ولم يكن لديها الوقت الكافي لمساعدتي .

مضت السيدة أوبير لتضع بعض الأدوية على خدوش وجهه ، وبقيت صوفي مع أمها التي كانت تطيل النظر إليها ، وحولت صوفي نظرها إلى النافذة مشغولة الفكر .

السيدة ريان :

– ما بك يا صوفي ؟ يبدو عليك الحزن .

صوفي :

– لا يا ماما .. لست حزينة على الإطلاق .

السيدة ريان :

– ألمح شيئاً ما يعذبك ولذلك أنت حزينة .

صوفي :

– ما بي شيء يا ماما .. لا شيء !

السيدة ريان :

– لا تنكري يا صوفي ، أنت حزينة والدموع في عينيك ، أحكي لي ما حدث ! .

صوفي :

– لا أستطيع لأني وعدت بول .

السيدة ريان :

– هل فعل بول شراً ؟ قولي ولا تخافي .. وأعدك بألا أقول لأمه ، أريد أن أعرف سبب حزنك ، لا بد أنه سبب خطير .

وما زالت أمها تربت على رأسها وتظهر لها عطفها وحنانها حتى ارتمت صوفي في حجرها ، وقالت لها والدمع يسيل من عينيها :

– لقد فعل بول ما أعجز عن وصفه .. إنه طيب القلب ، أراد أن يجنبني العقوبة لأني خمشت وجهه ، فرمى نفسه في شجيرة الشوك لئلا يكذب ، ولكي يخفي آثار أظافري .

وذهلت السيدة ريان وقالت :

– يا له من ولد شجاع ! ولكن هل تلمحين الفرق بينك وبينه ؟ لا أظنك ترمين نفسك في الشوك من أجله ، فهل رأيت كم أنت سريعة الغضب وناكرة للمعروف أيضاً ، إنه يسامحك ويصفح عن حماقتك دوماً .

صوفي :

– أعرف هذا يا أمي ، ولكني لا أستطيع ضبط أعصابي على الدوام ، سأحاول أن أتحكم في نفسي من الآن فصاعداً ، أعدك بذلك .

السيدة ريان :

– لن أضيف إلى عذاب ضميرك عقوبة أخرى ، يكفيك أنك تتألمين لألم بول ، وهذا وحده يدل على أنك فتاة طيبة القلب لا تحملين الحقد لأحد ، وقد أسعدني أنك اعترفت بخطئك ، ولم تخفي علي شيئاً ، لذلك سأسامحك من كل قلبي .

الفصل الرابع عشر

إليزابيت



ذات يوم كانت صوفي جالسة في كرسيها غارقة في التفكير ، فسألتها أمها :

– بم تفكرين يا صوفي ؟

صوفي :

– أفكر في إليزابيت شينو يا أمي .

وكانت إليزابيت إحدى صديقاتها التي تراها كثيراً .

السيدة ريان : وماذا ذكرك بها ؟

صوفي : لاحظت بالأمس أن يدها مجروحة ، وحين سألتها عن سبب جرحها أخفت يدها وقالت وقد احمر وجهها ، إنه عقوبة لها ، وأنا قلقة عليها .

السيدة ريان : سأشرح لك سبب هذا الجرح كما روته لي أمها ، وهذا دليل على شهامة صديقتك إليزابيت .



وكانت صوفي تحب سماع الحكايات فأدنت كرسيها من أمها وأصغت إليها .

السيدة ريان :

– أنت تعلمين أن صديقتك إليزابيت طيبة القلب ، ولكنها سريعة الغضب مثل بعض الفتيات في مثل سنها ، وقد تضرب مربيتها وتركلها لحظة غضبها ، وتندم بعدئذٍ وتفكر فيما حدث ، وكان ينبغي لها أن تفكر قبل حدوثه . بالأمس كانت المربية تسخن المكواة لكي تكوي إليزابيت ثياب دميتها ، ولم تترك لإليزابيت هذه المهمة ، لأنه يجب أن تصل المكواة إلى درجة حرارة معينة ، فلا تكون باردة ولا شديدة الحرارة ، ولكي تعرف المربية درجة حرارتها كانت تقربها من خدها ، لذلك كانت تمنع إليزابيت من لمس المكواة ، تصوري أن تحرق وجهها بالمكواة !

فارتجفت صوفي لهذه الفكرة . وتابعت السيدة ريان قائلة : ولكن إليزابيت تغافل مربيتها وتحاول تسخين المكواة وحدها ، إلا أن المربية امرأة حذرة تنتبه إليها كل مرة ، وتنتزع المكواة من يدها وتقول لها : إنك لا تطيعين قولي ، لذلك سأمنعك من كيِّ ملابس دميتك ، وسآخذ المكواة وأخفيها في الخزانة .

فتصرخ إليزابيت :

– أريد مكواتي .. أريد مكواتي .. أعطيني مكواتي ..

– لا .. فأنت فتاة عنيدة ولا تطيعين ما أقوله لك ، ولن تأخذي المكواة أبداً .

وترد عليها إليزابيت غاضبة :

– لويز ، أنت امرأة شريرة ! أعيدي لي المكواة فوراً !

فتقول لها المربية وهي تقفل الخزانة :

– لن تأخذيها حتى تصبحي فتاة مطيعة ، إنها في الخزانة الآن .

فهجمت إليزابيت على المربية لتنتزع المفتاح منها ، فقاومتها ولم تعطها المفتاح ، فخمشت يدها بأظافرها حتى سال الدم منها ، وحين رأت ما فعلته ندمت عليه وبدأت تبكي ، وتطلب العفو من المربية ، وقبلت يدها وغسلت جرحها بالماء ، وكانت لويز فتاة طيبة فسامحتها وقالت لها إن جرحها لا يؤلمها .

فقالت لها إليزابيت وهي تنتحب :

– لا .. لا .. هذا بشع ، يجب أن أتألم كما تألمت ، اخمشي لي يدي كما فعلت بيدك !

ولم تفعل لويز ما طلبته منها إليزابيت ، وانصرفت صديقتك إلى سريرها دون أن تقول شيئاً ، وكانت وديعة النهار كله ، ولكنها من الغد (أي بالأمس) حين جاءت المربية لتوقظها وجدت الغطاء ملطخاً بالدم ، وفحصت يدها فوجدتها ممزقة الجلد ، فهتفت لويز :

– ماذا حدث لك يا بنيتي العزيزة ؟ ومن جرحك ؟ هل هي القطة ؟

فأجابت إليزابيت :

– لا .. لقد جرحت نفسي بيدي عقاباً لي على قسوتي معك بالأمس .

وحين انصرفت إلى النوم فكرت أنه من العدل أن أتألم كما تتألمين ، لذلك جرحت يدي .

فعانقتها المربية ، ووعدتها إليزابيت بأن تكون مطيعة مستقبل الأيام .

فهل عرفت لم احمرت إليزابيت حين سألتها عن جرحها ؟ .

صوفي :

– نعم يا ماما ! لقد فعلت إليزابيت ما رأته عدلاً ، ولن تثور أعصابها وتغضب لأدنى سبب بعد الآن .

السيدة ريان :

– أنت نفسك لا تفعلين أبداً ما تظنينه مؤذياً ؟

صوفي :

– الأمر مختلف يا ماما ، فأنا عمري خمس سنوات وإليزابيت في العاشرة .

السيدة ريان :

– ليس الخلاف كبيراً ، وتذكري ما فعلت بابن عمك بول منذ ثمانية أيام !

صوفي :

– صدقت يا أمي ، ولن أفعل ما يؤذي من الآن فصاعداً .

السيدة ريان :

– هذا حسن ، ولكن لا تغتري بنفسك ولا تحسبي أنك أفضل مما أنت في حقيقة أمرك ، وهذه الحالة تسمى الغرور ، والغرور إحدى المفاسد التي تصيب الناس .

وابتسمت صوفي في سرها ، فقد عاهدت نفسها وأمها على ألا تكون متكبرة . ولكن لم ينقض يومان على هذا العهد حتى أصيبت صوفي في كبريائها وإليكم ما حدث .

الفصل الخامس عشر

الفواكه المجففة



رجعت صوفي مع بول إلى البيت بعد نزهة في الغابة فوجدت أحد السعاة يحمل طرداً كبيراً تحت إبطه ، وسأله بول بأدب :

– هل تبحث عن أحد يا سيدي ؟

الرجل :

– أنتظر السيدة ريان .. معي طرد لها .

وسألته صوفي :

– ومن أرسله ؟

الرجل :

– لا أعرف يا آنستي الصغيرة ، وكل ما أعرفه أنه مرسل من باريس .

صوفي :

– ولكن .. ماذا يحتوي هذا الطرد ؟

الرجل :

– أظن فيه فواكه مجففة ومربى الفواكه ، هذا مكتوب في الإيصال .

ولا فائدة من القول إن عيني صوفي قد التمع فيهما الشرر ، ومررت لسانها على شفتيها وقالت لبول :

– هيا نخبر ماما ! .

ومضت بسرعة .

وصلت السيدة ريان بعد دقائق ، ودفعت للساعي أجرته ، وحملت الطرد إلى القاعة ، وكان بول وصوفي يتبعان خطواتها وقد اهتما بهذا الطرد ، وكم خاب أملهما حين وضعت السيدة ريان الطرد على الطاولة دون أن تفتحه ، ومضت إلى المكتب تستكمل رسالة كانت قد بدأتها ، وتبادل بول وصوفي نظرات الأسى ، وقالت صوفي له :

– اطلب من ماما أن تفتحه !

بول :

– لا أجرؤ ! لا تحب عمتي الفضول وقلة الصبر .

صوفي :

– اطلب منها الإذن بفتحه .. وسوف نوفر عليها هذا المجهود .

السيدة ريان :

– لقد سمعت جيداً ما تقولينه يا صوفي ، دون أن ألتفت إليك ، ولا أريد منك هذه الخدمة التي يدفعك إليها الفضول ، وكنت أفضل لو صارحتني مباشرة وقلت لي : (ماما ، افتحي هذا الطرد لأرى ما يحتويه) لفعلت ، ولكنك تخبئين نواياك المتظاهرة بالصلاح ، ولذلك لن تلمسي هذا الطرد .

وغضبت صوفي ومشت إلى غرفتها يتبعها بول .

بول :

– أرأيت ما فعلت بك نواياك المتظاهرة بالطيبة ! إن عمتي تكره النفاق والمنافقين .

صوفي :

– هذا خطؤك أيضاً ، لماذا لم تطلب منها حين سألتك ؟ تريد أن تتصرف كأنك كبير الحكماء ، ولا تفعل في خاتمة الأمر سوى الحماقات .

بول :

– أولاً ، لا أتصرف كأني كبير الحكماء ، وثانياً لا أرتكب قدر ما ترتكبين من الحماقات ، تقولين هذا لأنك غاضبة ولم تشاهدي الفواكه المجففة .

صوفي :

– نعم .. إني غاضبة منك لأنك لا تجلب لي سوى توبيخ أمي وعتابها .

بول :

– هكذا ؟ حتى يوم خمشت وجهي ؟

فخجلت صوفي وسكتت ولم يتكلما برهة ، وكانت صوفي تود لو تطلب منه الصفح ، ولكن منعتها كبرياؤها من ذلك ، وأما بول فلم يكن غاضباً منها ، ولكنه لا يعرف كيف يصالحها دون أن يتنازل لها ، وأخيراً وجد الحل الوسط ، فبدأ يتأرجح على كرسيه إلى الأمام وإلى الوراء حتى سقط ، فسارعت صوفي جزعة وقالت :

– هل آذيت نفسك ؟

بول :

– لا .. لم أصب بأذى .. بل على العكس ..

صوفي :

– كيف (على العكس) .. هذا مضحك ! .

بول :

– لأنني حين سقطت أنهيت ما بيننا من خلاف .

صوفي :

– هذا لطف منك ، ولكن خفت أن تؤذي نفسك .

بول :

– وهل أوذي نفسي إذا سقطت من فوق كرسي واطئ ؟ والآن وقد أصبحنا أصدقاء ، فبماذا نلعب ؟

وخرجا يجريان ، وحين عبرا القاعة وجدا على الطاولة الطرد ما يزال مربوطاً ، فألقت عليه صوفي نظرة فضول ، ولكن جذبها بول من يدها لئلا تتمادى في أفكارها .

بعد الغداء نادت السيدة ريان بول وصوفي ، وقالت :

– سوف نفتح هذا الطرد ونتذوق الفاكهة المجففة ، اجلب لي يا بول مقصاً أو سكيناً لنقطع الخيوط .

ومضى بول ورجع كالسهم حاملاً معه سكيناً ناوله لعمته ، فقصت الخيط ومزقت الأوراق التي تغلفه ، فظهرت اثنتا عشرة علبة تحتوي على الفواكه المجففة والمربيات ، وفتحت واحدة منها وقالت :

- لنتذوقها ، وسنرى إن كانت لذيذة ، خذي اثنتين فقط يا صوفي ، واختاري ما شئت ، يوجد الإجاص والخوخ والمشمش والكرز .

وبعد أن اختار كل ما أراد ، حملت السيدة ريان العلبة إلى غرفتها ، ووضعتها فوق رف مرتفع ، ورافقتها صوفي حتى باب غرفتها .

حين عادت أعلنت السيدة ريان أنها لن تستطيع مرافقة الطفلين في النــزهة هذا المساء ، لأنها ستزور إحدى الجارات .

وقالت لهما :

- العبا أثناء غيبتي وتنــزها في الحديقة ، أو العبا أمام البيت ، أو افعلا ما يحلو لكما .

عانقتهما ثم صعدت إلى العربة مع زوجها ومع السيد والسيدة أوبير .

ولعب بول وصوفي طويلاً أمام البيت ، وكانت صوفي مشغولة بالفاكهة المجففة ، فعبرت عما يشغلها بصوت مرتفع ، وقالت :

- آسف لأني لم آكل الخوخ والكرز ، لا بد أنها لذيذة !

- طبعاً .. إنها لذيذة جداً ، ولكنك لن تأكلي منها إلا في الغد ، انسيها ودعينا نلعب الآن .

كانا قد حفرا حوضاً في الحديقة ، وبدأا ينقلان إليه الماء ، وفجأة انزلقت قدم بول واندفق الماء على بنطاله ، فأسف كثيراً وقال لصوفي :

- انتظريني هنا ، سأبدل بنطالي وأعود سريعاً .

وجعلت تلعب صوفي وحدها ، ولكنها لم تكن تفكر في الماء ولا الحوض ، ونسيت بول . بم كانت تفكر صوفي ؟ كانت تفكر بالفواكه المجففة ، في الخوخ والكرز وتأسف لأنها لم تتذوقها كلها .

وقالت لنفسها :

- سوف تطعمني منها أمي غداً ، ولكن لن يكون لدي وقت طويل لاختيار ما أشتهي ، وكم أتمنى لو ألقي عليها الآن نظرة واحدة ، ولكن ما المانع من رؤيتها الآن ؟ ما علي سوى فتح العلبة ، وهذا أمر يسير ، وسأختار غداً ما أراه اليوم شهياً .

ولم تنتظر أن تبدل رأيها ، بل نهضت فجأة وجرت إلى الغرفة ، وحاولت الوصول إلى الرف ، ولكن الرف مرتفع وهي صغيرة ، فوقفت على رؤوس أصابعها ولم تصل إليه ، وبحثت عن عصا أو مكنسة أو أي شيء آخر ، ثم قالت :

– ما أغباني ! لماذا لا أقرب كرسياً وأصعد فوقه .

وسرعان ما نفذت ما عزمت عليه ، فوصلت إلى الرف بسهولة ، وأمسكت بالعلبة وفتحتها وجعلت تتأمل محتوياتها من الفواكه المجففة التي عبقت رائحتها في أنفها فأنعشتها وأثارت شهيتها ، وتساءلت :

– أي واحدة سأختار غداً ؟ هذه أم تلك ؟

واحتارت إذ أن الفواكه مختلفة ، فبعضها كبير والآخر صغير ، وبعضها زاهي اللون والآخر أقل جمالاً ، واقتربت عودة بول .

وقالت لنفسها :

– ماذا سيقول بول إن رآني واقفة هكذا ؟ سيظن أني أسرق الفاكهة ، على حين أني أتفرج عليها فقط ، ولكن لدي فكرة ، لم لا أتذوق منها لأعرف أيها ألذ طعماً ، فأختاره غداً ؟ ولن يعرف أحد أني أكلت منها .

وعضت صوفي من كل نوع عضة ، ولكنها لم تستطع التمييز بينها ، لأنها تناولت منها على التوالي ، فعزمت أن تعيد الكرَّة ، وما زالت تتذوق من كل لون حتى اندهشت ، إذ نظرت فرأت العلبة فارغة تقريباً .

فخافت وجعلت تبحث عن فكرة تنقذها من هذه الورطة .

– إذا جاءت أمي فسوف ترى أن العلبة فارغة ، وستعرف أني أكلتها كلها ، فما العمل ؟ سأقول لها إن الفأرة أكلتها ، ولكن هل تصدق أن الفأرة تأكل العلبة ، سأذكر لها أنه جرذ كبير جاء من الحديقة ، ولأنه أكبر فهو يأكل أكثر .

واطمأنت صوفي لهذه الفكرة ، فجرت إلى الحديقة تلهو بالبركة ، وكأنها لم تفعل شيئاً ، وبعد قليل جاء بول وقال لها :

– لقد تأخرت لأني بحثت عن حذائي طويلاً حتى وجدته ، ماذا فعلت أنت أثناء ذلك ؟

صوفي :

– أوه .. لا شيء .. كنت أنتظرك .

بول :

– ولكنك لم تملئي الحوض ولم يبق فيه ماء ، اذهبي واجلبي سطلاً من الماء وناوليني هذه المجرفة التي تحملينها .

ورجعت صوفي بعد قليل حاملة سطل الماء ، فقال لها بول :

– ماذا وضعت على مقبض المجرفة ؟ إنها تلتصق بيدي .

صوفي :

– لم أضع عليها شيئاً ، ولا أدري لم تلتصق باليد .

وسارعت إلى غمس يديها في سطل الماء ، إذ لاحظت أن أصابعها ملطخة بالمربى وبالفواكه المجففة ، وسألها بول :

– ماذا جرى لك ؟ سوف تبللين ثوبك .

صوفي :

– أريد أن أعرف إن كان الماء بارداً .

بول :

– يا لها من فكرة ! أراك تتصرفين تصرفات غريبة منذ عودتي ، هل فعلت شيئاً مؤذياً ؟

صوفي :

– وماذا فعلت ؟ انظر حولك وستجد أن كل شيء في مكانه ، ولكن لديك فكرة سيئة عني .

بول :

– حسناً .. حسناً .. لا تغضبي ! كنت أمزح ، ولا ضرورة لأن تنظري إلي هذه النظرة القاسية .

وهزت صوفي كتفيها ، وتناولت السطل فأفرغته في الحوض .

وما زالا يلعبان هكذا حتى الساعة الثامنة حينما جاءت المربيتان تبحثان عنهما ، إذ حان وقت العشاء .

قضت صوفي ليلة مضطربة ، وحلمت أحلاماً معقدة ، إذ رأت في منامها أنها أمام حديقة كبيرة عامرة بالأزهار الرائعة والفواكه الناضجة الشهية ، ولكنها لا تستطيع دخولها ، ورأت شخصاً كأنه ملاكها الحارس يقول لها :

– لا تدخليها يا صوفي .. أرجوك ، فهذه الفواكه مسمومة ، وتلك الأزهار نتنة ، وهذه حديقة الشر ، اتبعيني إلى حديقة الخير .

ولكنها نظرت إلى الطريق التي يسلكها فإذا هي وعرة ، مملوءة بالحجارة ، فقالت صوفي وهي تشير إلى حديقة جميلة :

– أفضل التنــزه في هذه الممرات الممهدة . واندفعت فيها ، وابتعدت عن الملاك الحارس وهو يناديها آسفاً :

– عودي يا صوفي ، عودي .. ! فهي مملوءة بالأطفال الشريرين ، وسوف يؤذونك ! سأنتظرك هنا .

ولم تصغ صوفي إليه ، إذ كان الأطفال اللطفاء يدعونها إلى الاقتراب وهي تقبل إليهم ضاحكة ، وحينما دنت منهم تحولوا إلى مخلوقات مخيفة ، فجذبوا شعرها أو أداروا لها ظهرهم ، وكانت تحس بالتعاسة ، ورائحة الأزهار النتنة تعبق في المكان ، وطعم الفواكه مقرف .

نهضت من نومها فزعة وهي غارقة في العرق ، فوجدت هذا الحلم غريباً ، وعزمت أن تطلب من أمها تأويله غداً ، ثم عادت إلى النوم .

من صباح الغد ، ذهبت إلى أمها وصبحتها بالخير وبدأت تروي لها الحلم الذي رأته بالأمس وقد شغلها عن قضية الفواكه المجففة ، ووجدت أمها مقطبة الجبين ولكنها روته لها .

السيدة ريان : أتطلبين مني تفسير هذا الحلم يا صوفي ؟ تأويل هذا الحلم أنك لست عاقلة ، وأنك تفعلين ما يحلو لك ، فإذا به ينقلب شراً عليك ، وهذه الحديقة المسمومة أزهارها وفواكهها والعامرة بالأطفال اللطفاء ظاهراً ما هي سوى جهنم ، وأما الحديقة الأخرى التي تمتد إليها طريق وعرة المسالك فهي الجنة ، ومعناه أنه يجب علينا أن نحرم أنفسنا كثيراً من الأشياء لكي نصل إلى ما نرجوه ، هذا حلم غريب حقاً ، ولكنه شبيه بما رويته لك منذ مدة ، وما كنت لتحلمي به لولا أن معدتك ثقيلة .



وحدقت السيدة ريان في ابنتها صوفي ، فأحست بالقلق ، وتحركت في كرسيها ، ونظرت إلى أمها وهي تفكر في الفواكه المجففة ، وهمت بالكلام ولكنها لم تجرؤ عليه ، ولمحت السيدة ريان ترددها فساعدتها على الكلام بقولها : هيا يا صوفي ! أراك تريدين أن تقولي شيئاً .. هيا لا تترددي ! لأنه من الصعب الاعتراف بالخطأ ، وأنت الآن في الطريق الوعرة المؤدية إلى الجنة التي يدعوك إليها الملاك ، فأصغي إليه واهجري الأطفال الشريرين والفواكه الفاسدة !

حينئذٍ احمر وجهها خجلاً ، وأخفت رأسها بين يديها ، وتساءلت عما إذا كانت أمها قد عرفت بأنها أكلت الفواكه المجففة ، ولم تعد تحتمل هذا القلق ، فاعترفت لأمها بكل شيء .

السيدة ريان :

– وكيف تأملين أن يخفى عليَّ هذا ؟

صوفي :

– كنت سأقول لك إن جرذاً أكلها .

السيدة ريان :

– وهل تحسبينني أصدقك ؟ وأين ذلك الجرذ الذي يفتح غطاء العلبة ويأكل ما فيها ، ثم يعيد إغلاقها ؟ لو كان جرذاً لبدأ بقرض العلبة

وتمزيقها بأسنانه ، وهل تظنين أن الجرذ محتاج إلى الكرسي لكي يصعد إلى الرف .

صوفي :

– وكيف عرفت أني جذبت الكرسي ؟

السيدة ريان :

– لأنك نسيت إعادته إلى مكانه يا غبية ! وتركت على قماش الكرسي آثار قدميك الملطختين بالطين .. وحين رأيت العلبة فارغة انصرف تفكيري إليك فوراً ، لذلك أحسنت صنعاً إذ اعترفت بخطئك ، ولو كذبت علي لساءت حالتك وازدادت عقوبتك ، ولكن اعترافك لا يعفيك من العقوبة ، فقد أكلت كفايتك ، وسوف تنظرين إلينا ونحن نتناول بقية المربيات ، ولا أظنك أكلت العلبة كلها !

عانقت صوفي أمها بحنان ، وفرحت لأنها نجت من العقاب ، وأزاحت عن صدرها عبئاً ثقيلاً باعترافها بالذنب ، ومضت إلى غرفتها حيث ينتظرها بول ليلعبا .

بول :

– صباح الخير يا صوفي ! ماذا حدث لك ؟ إن عينيك محمرتان ، هل بكيت ؟

صوفي :

– نعم بكيت قليلاً .

بول :

– لماذا ؟ هل وبختك عمتي ؟

صوفي :

– لم توبخني ، ولكني خجلت من اعترافي لها بخطأ ارتكبته أمس .

بول :

– وماذا فعلت ؟ لم أرك فعلت شيئاً مؤذياً أمس .

صوفي :

– لأني أخفيته عنك جيداً .

وحكت صوفي لابن عمها كيف أنها بدأت بالفرجة على الفواكه المجففة ، وانتهت بأن أكملت أكلها كلها تقريباً ، وكيف اعترفت لأمها بالذنب ، فهنأها بول كثيراً ، وأصغى بانتباه إلى الحلم الذي رأته في نومها ، فكان يذكّرها به لكي تكون فتاة مطيعة .

الفصل السادس عشر

القط والبلبل



كانت صوفي وبول يتنـزهان ذات يوم في الريف ومعهما المربية ، وقد رجعوا من القرية بعد أن تصدقوا على امرأة فقيرة فقدت زوجها ، وكانوا يمشون متمهلين يقطفون الأزهار أو يحاول بول تسلق الأشجار .

كانت صوفي مختبئة وراء دغلة حين سمعت صرخة حيوان صغير ، فخافت وخرجت من مخبئها ، ونادت بول :

– تعال يا بول ، ناد المربية ، فقد سمعت صرخة بجانبي في الدغلة ، إنه حيوان .

بول :

– ولم ننادي المربية ، لنذهب نحن لعلنا نراه بأنفسنا .

صوفي :

– لا .. قد يكون حيواناً شرساً .

بول :

– لقد قلت إنها صرخة صغيرة ، ولا يمكن أن يكون حيواناً كبيراً .

صوفي :

– لا أدري ، قد يكون ذؤيباً أو أفعى .

بول :

– ها .. ها .. ومتى كان للأفعى صوت ؟ وهل تظنين أن صوت الذؤيب لا يكاد يُسمع ؟

صوفي :

– ها هو ذا .. أتسمعه ؟

كان صوت مواء يصدر عن الدغلة التي فرق بول أغصانها وبحث بينها ، وقال بعد قليل :

– إنه قط صغير مريض ، انظري إليه ما أتعسه !

وجرت صوفي لترى قطاً صغيراً أبيض اللون ولكنه ملوث بالطين . وكان ممدداً في المكان الذي اختبأت فيه صوفي ، فقالت :

– ناد المربية لتحمله ، انظر إليه كيف يرتجف ، وهو نحيف .

وجاءت المربية فأشارا إلى مكان القط ، وطلبا منها أن تحمله .

المربية :

– أريد أن أحمله ، ولكن كيف أفعل ؟ فهو مبلل بالماء ووسخ بحيث لا أستطيع حمله بيدي ، وهو مقزز !

صوفي :

– هل يمكن لفه داخل الأوراق ؟

بول :

– أو داخل منديلي .. هذا أفضل .

صوفي :

– فكرة جيدة ، سأمسكه بمنديلي ، ثم أضعه داخل منديلك وتحمله المربية .

وحملت المربية القط الضعيف النحيل الذي لا يقدر على الحركة ، وأسرعوا إلى البيت ووصلوا خلال دقائق ، وكان بول وصوفي يسبقان المربية ، فدخلا إلى المطبخ وقالت صوفي للطباخ :

– أعطني فنجان حليب ساخن !

وسألها الطباخ :

– ماذا تفعلين به .

سيشربه القط الصغير الذي وجدناه في الغابة ، ها هو ذا تحمله المربية وهو يكاد يموت جوعاً .

وضعت المربية القط على أرضية المطبخ ، وقدم له الطباخ صحناً من الحليب الساخن فجعل يلعقه بنهم ، ولم يترك فيه قطرة واحدة .

صوفي :

– ها هو ذا ينهض ! ويلحس وبره !

بول :

– هل نحمله إلى غرفتنا ؟

الطباخ :

– أرى أن يترك هنا لأن المطبخ دافئ والحليب قريب منه ، وسوف يشرب منه متى يشاء .

بول :

– هذا رأي صائب ، لنتركه هنا .

صوفي :

– وهل سيكون لنا ؟ ونلهو به حين نريد ؟

الطباخ :

– طبعاً .. سيكون لك ، وستلهين به ما شئت .

وأمسك بالقط ووضعه فوق كومة الرماد تحت الموقد ، وسرعان ما نام . وتركه الولدان وهما يوصيان الطباخ بأن يطعمه .

صوفي :

– وكيف سندعو هذا القط ؟

بول :

– سندعوه قطقوط .

صوفي :

– لا ، كل القطط تدعى بهذا الاسم ، سندعوه (فاتن) .

بول :

– وإذا كبر وأصبح بشعاً ؟

صوفي :

– صحيح .. ولكن يجب أن نسميه .

بول :

– وجدت له اسماً جميلاً : بومينو !

صوفي :

– نعم اسم جميل : بومينو ! وسأطلب من أمي أن تصنع له طوقاً ، وأطرز عليه اسمه بومينو .

ذهبا إلى السيدة ريان وقصا عليها حكاية هذا القط ، وطلبا منها أن تصنع له عقداً ، فمضت معهما إلى المطبخ لتراه وتأخذ مقياس رقبته ، فقالت حين رأته :

– لا أدري إن كان سيعيش ، فهو ضعيف لا يكاد يقوى على الوقوف .

بول :

– ولكن ماذا كان يفعل في الدغلة ، فالقطط لا تعيش في الغابة .

السيدة ريان :

– أظن أن بعض الناس قد رموه هناك ، تصور أن يأخذك أحد ويرميك وسط غابة ضخمة ، فماذا تفعل ؟ وهل تجد طريقك ؟

صوفي :

– أمشي .. أمشي بخط مستقيم حتى أجد البيوت وأسأل عن الطريق ، وأذكر لهم اسمي وعنواني .

السيدة ريان :

– وهل تتصورين أن القط الصغير يستطيع التفكير أو التحدث إلى الناس مثلك ، وليس للقط بيت يأوي إليه .

صوفي :

– ولكن كيف وصل إلى هذه الدغلة ؟ يكاد يموت من الجوع .

السيدة ريان :

– لا أدري .. ربما رماه بعض الأشرار ، ثم إنه استطاع أن يلفت نظرك إليه ، فأنقذته .

بول :

– وهل فعل هذا بتفكير منه ؟

السيدة ريان :

– إن الله تعالى هو خالق الكون ، وهو يلهم كل مخلوق ويعطيه هداه ، والله تعالى لا ينسى حتى أصغر مخلوقاته ، ويغمرها بإحسانه .

ذهب بول وصوفي إلى المطبخ ليطمئنا على بومينو فوجداه راقداً فوق الرماد الساخن وبجانبه صحن حليب ، فتركاه وذهبا إلى الحديقة .

بعد ثلاثة أيام استعاد القط قواه ، وبدأ يلعب ويلهو مثل كل القطط الصغيرة ، وكلما كبر ازداد قوة وجمالاً ، ولحسن حظ بول وصوفي فإن هذا القط من فصيلة (الأنغورا) ذات الوبر الطويل الحريري ، الأبيض الناعم ، وكانت عيناه برتقاليتين تلمعان كالشمس ، وأنفه الصغير وردياً كأنه أنف طفل صغير ، لقد كان قطاً رائعاً أحبه بول وصوفي أشد الحب .



لقد عاش بومينو حياة هانئة يأكل ما يشتهي ويذهب حيث يريد ، ولا عيب فيه سوى أنه لا يحب العصافير .

وما أن يخرج من البيت حتى يتسلق الأشجار باحثاً عن الأعشاش ، ويلتهم ما يجد فيها من فراخ ، وقد يهاجم أمهاتها التي تدافع عن الصغار ، ولكنه يقتلها دون شفقة .

وحين يبصرانه متسلقاً شجراً ينادیانه ولكنه لا يستجيب لهما ، حتى يلتهم الفراخ .

وحينما يهبط من الشجرة تضربه صوفي بقضيب تؤدبه ، فاعتاد ألا يهبط من الشجرة حتى تمل صوفي من الانتظار وتمضي ، أو يقفز من أعلى الأغصان ، ثم يجري بأقصى سرعته وهي تلاحقه ، وكانت تصرخ فيه قائلة :

– حذار يا بومينو ! سوف يعاقبك الله على سوء عملك ، وسترى جزاءك أمامك ، ولا بد أن تحل بك مصيبة .

ولم يكن يبدو على بومينو أنه يهتم بما تقول .

ذات يوم ، جلبت السيدة ريان إلى القاعة قفصاً مذهباً فيه طائر جميل رائع المنظر ، وقالت :

– انظروا إلى هذا الطائر يا أولاد ، إنه هدية من إحدى صديقاتي ، وغناؤه شجي .

صوفي :

– كم أتمنى لو سمعته !

السيدة ريان :

– سوف يغني بعد قليل ، ولكن ابتعدا عنه لأنه يخاف .

كان البلبل ينظف ريشه الملون ، ثم بدأ يترجح وينظر يمنة ويسرة بحركات سريعة ، ثم مد عنقه وانطلق في التغريد .

وكم كانت فرحة الطفلين عظيمة .

قالت السيدة ريان :

– إنه يغني ألحاناً كثيرة ، ولكنه متعب الآن من سفره الطويل ، لنتركه يستريح ويألف البيت وسوف يغني بعد الغداء . اتركاه وحده ، أو بالأحرى اذهبا إلى الحديقة واطلبا من البستاني أن يقطف له بعض النباتات ليأكلها ، وهو يعرف ما يصلح طعاماً له .

وأسرع الطفلان إلى الحديقة ورجعا وقد حملا من النباتات ما يكفي لملء قفصين .

قالت السيدة ريان ضاحكة :

– حسناً جداً ، ولكن أنقصا الكمية في المرة القادمة .

وضعت السيدة ريان النباتات في القفص ، فتلفت البلبل حذراً ، ثم بدأ ينقر منها ، فقالت لهما :

– هيا إلى الغداء الآن .

ولم يكن لهما من حديث على الغداء سوى البلبل .

قالت صوفي :

– ما أجمل ريشه !

وقال بول :

– وهل رأيت ألوانه ؟

وقالت السيدة ريان :

– وهل سمعتما غناءه العذب ؟ يجب أن نتركه على راحته حتى يغرد كل ما يعرف من ألحان . بعد تناول وجبة الغداء رجع الجميع إلى القاعة ، فوقفوا مذهولين من هول ما رأوا ، كان البلبل الجميل يضرب بجناحيه محاولاً الإفلات من فم بومينو الذي أمسكه وعض عليه بأسنانه ، بعد أن كسر قضبان القفص ، واقتحم على البلبل البائس مسكنه .

وهجمت السيدة ريان على القط لتنتزع البلبل منه ، ولكنه اختبأ تحت المقعد والبلبل بين أسنانه ، فمدت السيدة ريان المكنسة وضربت القط ، فخرج من القاعة ولم يترك ضحيته ، ولحقت به السيدة ريان ، وضربته ضربة قوية على رأسه فسقط لا حراك به ، وارتمى البلبل بعيداً عنه .

وصرخت صوفي : آه .. يا بومينو المسكين !

وصرخ بول : آه .. أيها البلبل المسكين !

وقفت صوفي تنظر إلى القط ، وتذكرت جرائمه السابقة فقالت :

لقد حذرته عاقبة المصير ، ولكنه لم يرتدع ، ولقد نال الآن جزاءه العادل .

الفصل السابع عشر

علبة الخياطة



من مساوئ صوفي التي لم نذكرها حتى الآن أنها إذا رأت شيئاً فأعجبها ، طلبته لنفسها دون خجل ، وما تزال تطلبه من أمها ، وتلح في طلبها حتى تطردها إلى غرفتها ، ولا تنساه ، بل تفكر فيه دوماً ، وتظن نفسها أتعس خلق الله ، وهي تقول :

– كيف أحصل عليه ، فأنا راغبة فيه ، ولا بد أن أناله .

وقد يتسبب لها إصرارها هذا في كثير من المصائب ، ولكنها لا ترتدع .

ذات يوم نادتها أمها لتريها علبة خياطة جميلة ، أرسلها إليها السيد ريان من باريس ، وهي علبة مكعبة تغطيها رسوم ملونة ومذهبة . وهي مبطنة بالمخمل الأزرق ، وتحتوي لوازم الخياطة من إبر وبكرات

وكشتبان وخيطان ومقص وسكين وملاقط ودبابيس ، فوقفت صوفي أمام العلبة ذاهلة ، وقالت :

– يا لها من علبة رائعة ، وهي تحتوي كل ما يلزم للخياطة ، ولا ينقصها شيء ، لمن هذه العلبة ؟

قالت هذا بابتسامة ماكرة ، تحث أمها على أن تقول : هي لك يا حبيبتي .

ولكن خاب أملها إذ قالت لها السيدة ريان بكل هدوء :

– هي لي ، أرسلها والدك من باريس .

صوفي :

– يا للأسف ! كنت أتمنى لو تكون لي !

السيدة ريان :

– شكراً لهذه العواطف يا صوفي ! يظهر عليك الحسد لأني أملك مثل هذه العلبة الجميلة ! هذه أنانية منك !

صوفي :

– آه يا ماما ! أعطينيها أرجوك !

السيدة ريان :

– ما تزالين صغيرة لا تتقنين الخياطة ، ثم إنك فوضوية لا ترتبين أدواتك ، وسوف تفقدين ما فيها واحداً بعد الآخر .

صوفي :

– لا يا ماما ! سأحافظ عليها .

السيدة ريان :

– هيا يا صوفي ، انسيها ... ما تزالين صغيرة .

صوفي :

– لقد بدأت تعلم التطريز ، وقد مدحت أشغالي في المرة الماضية ، إني أحب الخياطة والتطريز يا ماما .

السيدة ريان :

– حقاً ، ولماذا تغضبين حين أطلب منك الانصراف إلى الأشغال اليدوية ؟

صوفي :

– لأني .. لأني .. ليس عندي لوازم الأشغال ، ولكن حين تكون هذه العلبة لي ، سترين كيف أنجز أروع الأشغال .

السيدة ريان :

– أنجزي أشغالك دون هذه العلبة ، وسنرى ما يكون بعدئذ .

صوفي :

– آه .. ماما .. أرجوك .

السيدة ريان :

– أنت فتاة ملحاحة .. انسي هذه العلبة !

وما زالت صوفي تلح على أمها ، حتى ضجرت منها ، وطلبت منها أن تلعب في الحديقة .

ذهبت صوفي إلى الحديقة ولكنها لم تلعب ولم تتنــزه ، بل وضعت يديها بين ركبتيها وأطرقت إلى الأرض تفكر بطريقة للحصول على علبة الخياطة .

وقالت لنفسها :

– لو كنت أعرف الكتابة لأرسلت إلى أبي رسالة أطلب منه علبة مثلها ، ولكني لا أعرف الكتابة لسوء حظي ، وإذا أمليتها على أمي فسوف توبخني ، ولا أستطيع انتظار عودة أبي من باريس ، فأنا شديدة الشوق إلى الحصول عليها فوراً ، آه .. يا رب ! ما العمل ؟

وما زالت تفكر وتفكر حتى قفزت وهي تفرك يديها :

وجدتها .. وجدتها والعلبة لي .

ذهبت صوفي إلى القاعة فوجدت العلبة على الطاولة كما تركتها أمها ، فتلفتت لتتأكد من أن أحداً لا يراها ، ثم فتحتها وأخذت منها كل ما تحتويه من إبر ومقص وكشتبان وبكرات وسواها ، ثم أغلقتها بعناية وأعادتها إلى مكانها ، وانطلقت إلى غرفتها فوضعت هذه الأشياء في أدراج طاولتها مع ملابس دميتها ، وقالت لنفسها بسذاجة الأطفال :

– حين تعود أمي وتجد العلبة فارغة ، ستضطر إلى إعطائها لي ، فأملؤها بهذه الأدوات وتكون لي .

وفرحت بهذه الحيلة الماكرة ، وظنت أن أمها لن تسأل عمن سرق الأدوات ، وكيف سرقتها ، ولم تفكر في العقوبة التي قد تنالها .

انتهى النهار كله ولم تنتبه الأم إلى سرقة صوفي ، ولكن بعد انتهاء الغداء قالت السيدة ريان لصاحبتيها اللتين جاءتا لزيارتها ، إن زوجها قد أرسل إليها علبة خياطة رائعة من باريس ، ثم قالت وهي تعرضها أمامهما :

– ستريان أنها علبة كاملة ، فيها كل لوازم الخياطة والتطريز ، والعلبة نفسها تحفة فنية .

ورددت المرأتان :

– ما أروعها .. وما أجمل ألوانها .

وفتحت السيدة ريان العلبة ، وذهلت إذ وجدتها فارغة ، ونظرت إليها المرأتان دون أن تفهما شيئاً .

فصاحت وقد قطبت حاجبيها :

– ما معنى هذا ؟ كانت مملوءة هذا الصباح ، ولم آخذ منها شيئاً !

وقالت إحداهما :

– لعلك أفرغتها في القاعة .

السيدة ريان :

– لا ، لم أمس محتوياتها ، وثقتي كبيرة بالخادمات .

السيدة :

ولكن العلبة فارغة ، ولا ريب أن أحداً أفرغها من محتوياتها .

أثناء ذلك كانت صوفي مختبئة وراء كرسي ، وقلبها يخفق بقوة ، وأعضاؤها ترتجف وقد احمر وجهها .

وبحثت عنها السيدة ريان بعينيها فلم تجدها ، فنادت :

– صوفي .. صوفي .. ! أين أنت ؟

ولم تجب صوفي ، ولكن رأتها السيدتان مختبئة وراء الكرسي ، فدهشتا لهذه الفتاة الحمراء الوجه المضطربة الأعضاء ، وعرفتا أنها السارقة ، وقالت لها أمها بصوت صارم :

– اقتربي .. يا آنسة صوفي .

فدنت صوفي ببطء وقدماها لا تحملانها .

السيدة ريان :

– أين وضعت الأدوات التي كانت داخل العلبة ، يا صوفي ؟

صوفي :

– لم آخذ شيئاً ولم أخبئ شيئاً .

السيدة ريان :

– لا فائدة من الكذب .. هاتي الأدوات حالاً وإلا نالتك عقوبة لم تسمعي بمثلها .

صوفي :

– أؤكد لك يا ماما ، أني لم آخذها .. ولم ألمس شيئاً .

السيدة ريان :

– تعالي معي !

وأمسكت الأم بيد صوفي ومضت بها إلى غرفتها ، وفتشت كل الأدراج والرفوف ولم تجد شيئاً ، واضطرب قلبها إذ ظنت أنها ظلمت صوفي المسكينة ، وأهانتها أمام المرأتين ، وخطر لها أن تفتش الملابس ،

فوجدت الأدوات مخبوءة بين ثياب الدمية ، فكاد قلب صوفي يقف عن الخفقان !

ولم تقل السيدة ريان شيئاً ، بل أمسكت قضيباً وانهالت على قدميها ضرباً لم تنله في حياتها ، وبكت صوفي واستغاثت ، ولكن أمها لم تتوقف عن ضربها ، وعلى الرغم من حبنا لهذه الفتاة الصغيرة إلا أنه ينبغي القول إنها تستأهل هذه العقوبة ، فهي سارقة وكاذبة .

وأفرغت السيدة ريان محتويات الدرج داخل العلبة ، وتركت صوفي في القاعة تكفكف دمعها .

لم تجرؤ صوفي على العودة إلى قاعة الضيوف ، وأرسلت إليها أمها طعام العشاء مع المربية ، وأمرتها أن تنام باكراً ؟ ، عقاباً لها .

وبكت صوفي طويلاً ، ولم تواسها المربية هذه المرة ، كما اعتادت أن تفعل ، إذ كانت ساخطة عليها وقالت لها :

– يجب أن أخفي أدواتي وأحذر منك ، لأنك تسرقين الأشياء ، وأخاف أن تتهمني أمك بالسرقة إذا فقدت الأشياء .

من الغد دعت السيدة ريان ابنتها صوفي إليها ، فجاءت ويداها وراء ظهرها مطأطئة الرأس : اسمعي يا صوفي ! سأقرأ عليك الرسالة التي بعثها أبوك مع العلبة :

(تحية وسلاماً وبعد :

هذه علبة خياطة أرسلها إلى صوفي ، ولكن لا تعطيها لها إلا إذا بقيت عاقلة لمدة أسبوع على الأقل ، وستكون هذه العلبة هدية لها جزاء أدبها وهدوئها ، وآمل أن تتمكن من الحصول عليها ..) .

وتابعت السيدة ريان قائلة : رأيت يا آنسة كيف سرقت نفسك بنفسك ؟ ولن تنالي هذه العلبة حتى لو بقيت عاقلة شهوراً وشهوراً ، وأرجو أن تتعلمي من هذه الحادثة البشعة درساً لا تنسينه طول عمرك ، اخرجي !

بكت صوفي وطلبت الصفح منها حتى غفرت لها ، ولكنها لم تعطها العلبة أبداً ، وإنما أعطتها بعد مدة لإليزابيت شينو الصغيرة .

سمع بول بهذه الفعلة القبيحة ، فخجل من مقابلة صوفي ، وابتعد عن البيت ثمانية أيام ، ولكنه حين علم أنها لا تكف عن البكاء ، وأنها تحس بالخجل والمهانة ، وأن الجميع يسمونها السارقة عاد ليواسيها ويخفف عنها حزنها ، وقال لها : إن خير وسيلة تكفرين بها عن غلطتك هي أن تستقيمي ، حتى يضرب المثل بصدقك وحسن سيرتك .

ولا بد من القول إن هذا الدرس قد أثر في صوفي ، فأصبحت فتاة مثالية ، يضرب بها المثل ، فالحسنات تمحو السيئات .

الفصل الثامن عشر

الحمار

بذلت صوفي جهداً جباراً لتظل عاقلة ، تطيع أمها مدة أسبوعين ، ووجد بول أنها لم تعد سريعة الغضب ، ولاحظت المربية أنها مطيعة لا تتمرد ، وأدركت السيدة ريان أن ابنتها تخلت عن نهمها وكسلها وكذبها ، وبحثت عن طريقة تكافئها بها على جهدها الحميد ، ولم تعرف ما يدخل السرور على قلبها .

ذات يوم كانت تطرز أمام النافذة المفتوحة ، وبول يلعب مع صوفي في الحديقة ، فعرفت مما دار بينهما من نقاش ، ما يدخل البهجة على نفس صوفي .

بول :

– ما أشد الحر هذا اليوم ، إني أتعرق كثيراً .

صوفي :

– وأنا أيضاً .. مع أننا لم نتقدم في عملنا كثيراً .

بول :

– وذلك لأن المنقلة التي نحمل فيها التراب صغيرة جداً .

صوفي :

– لو استخدمنا منقلة البستاني لأسرعنا في عملنا .

بول :

– مستحيل ، لن نستطيع تحريكها ، حاولت أن أستخدمها مرة فانقلبت بما فيها من تراب .

صوفي :

– وكيف ننتهي من تحضير حديقتنا ؟ يلزمنا مائة نقلة من التراب قبل أن نهيئ الأرض لزراعة الخضار والزهور .

بول :

– ليس أمامنا حل آخر ، سوى أن نصغّر حجم حديقتنا .

صوفي :

– لا ، هذا مستحيل ، أتعرف ماذا يلزمنا ؟ يلزمنا حمار يجر عربة صغيرة ننقل بها التراب مثلما تفعل كاميل ومادلين فلورفيل ، ونختصر بذلك الوقت .

بول :

– هذا صحيح ، ولكن ليس لدينا حمار ، فينبغي لنا أن نقوم نحن بعمله .

صوفي :

– لدي فكرة يا بول !

بول :

– يا ويلي .. أخاف من أفكارك العبقرية .

صوفي :

– اسمع ولا تسخر مني ! كم مصروفك في الأسبوع ؟

بول :

– فرنك واحد

صوفي :

– وأمي تعطيني فرنكاً في الأسبوع ، فما رأيك أن نوفر مصروفنا حتى نجمع ثمن حمار وعربة واحدة ؟

بول :

– لو كان معنا عشرون فرنكاً بدلاً من فرنكين أسبوعياً لاستطعنا توفير ثمن الحمار والعربة .

صوفي :

– انتظر ، فرنكان أسبوعياً ، كم يكون المجموع شهرياً ؟

بول :

– لا أدري ، ولكنه ليس مبلغاً كبيراً .

صوفي :

– ما رأيك لو طلبتُ أنا من أمي وطلبتَ أنت من أمك أن تقدما إلينا هدية رأس السنة مقدماً ؟

بول :

– لا أظنهما تقبلان .

صوفي :

– سنطلب منهما ذلك ، فلنحاول !

بول :

– اطلبي من أمك أولاً ، فإذا رفضتْ طلبتُ من أمي .

صوفي :

– لا تبدو عليك الشجاعة .

وهُرعت إلى أمها التي تظاهرت بأنها لم تسمع شيئاً من حوارهما ، وطلبت منها بلهجة جادة :

– هل يزعجك أن تعطيني هدية رأس السنة مقدماً ؟

السيدة ريان :

– هدية رأس السنة في شهر آب ؟ يا لها من فكرة ! ولا يوجد شيء نشتريه هنا في الريف ، لا بد من الذهاب إلى باريس .

صوفي :

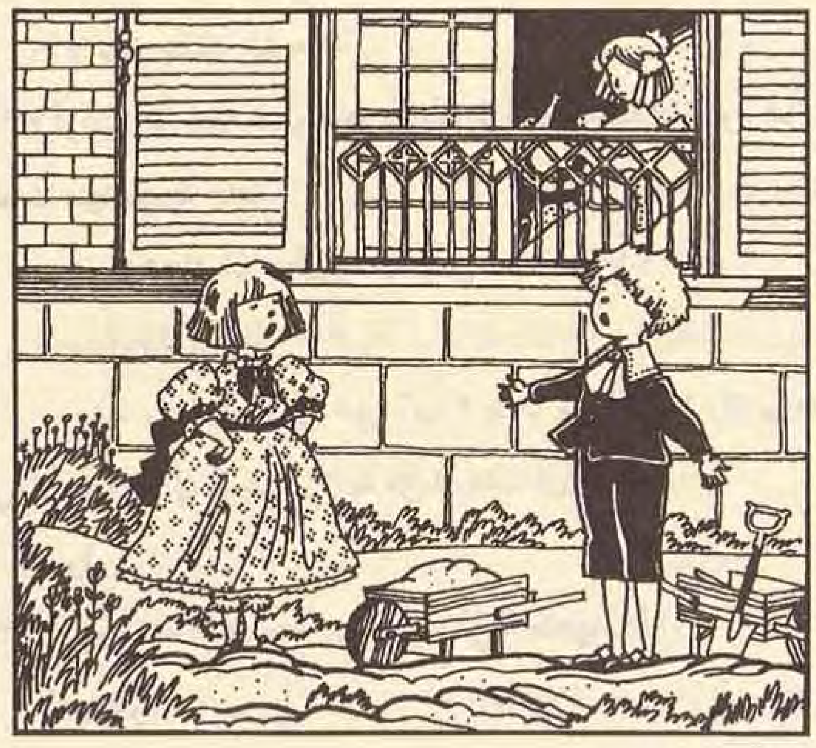
– أريد هذه النقود هنا .. لأني .. لأني أحتاجها .

السيدة ريان :

– وماذا تفعلين بها ؟ إن كانت من أجل مساعدة المحتاجين فسوف أساعدهم بنفسي ، لأن من واجبنا مساعدة المحتاجين .

صوفي :

– لا ليست من أجل مساعدة المحتاجين .. بل من أجل .. شراء حمار !



السيدة ريان :

– تشترين حماراً ! وما فائدة الحمار لك ؟ يا لها من فكرة !

صوفي :

– نحتاجه أنا وبول ، فالجو حار وقد نقلنا الكثير من التراب من أجل حديقتنا .

السيدة ريان :

– وهل تعتقدين أن الحمار يسوق المنقلة بدلاً منكما ؟

صوفي :

– لا يا ماما ! أعرف أن الحمار لا يسوق المنقلة ، ويلزمنا مع الحمار عربة صغيرة يجرها ، وننقل عليها التراب .

السيدة ريان :

– أعترف لك يا صوفي أنك بدأت تبتكرين الأفكار البناءة .

صوفي :

– كنت أعلم أنها فكرة جيدة .. بول .. بول .. تعال بسرعة .

السيدة ريان :

– لا تتسرعي يا صوفي ، لقد قلت لك إنها فكرة جيدة ، ولم أقل إني سأعطيك هدية رأس السنة الآن ، هذا غير وارد !

صوفي :

– وكيف سنفعل إذن يا ماما ؟

السيدة ريان :

– إذا بقيت على ما أنت عليه من حسن الخلق والسيرة الطيبة ، أعدك بأن أشتري لك حماراً وعربة صغيرة ، أعدك بذلك حقاً .

صوفي :

– ما أسعدني ! هذا رائع .. بول ، بول ! ستشتري لنا ماما حماراً وعربة .

بول :

– أين الحمار وأين العربة ؟

صوفي :

– وعدتني أمي بشرائهما .

السيدة ريان :

– سأشتريهما لك يا بول ، لأنك ولد لطيف مطيع ، وأشتريهما لك يا صوفي لكي تفعلي مثل ابن عمك وتثابري على عملك ، هيا يا أولاد ! سنذهب إلى رؤية السائس وهو يبحث عن حمار وعربة .

ولم ينتظرا السيدة ريان ، بل سارعا إلى الإسطبل وهما يصرخان صرخات الفرح ، وكان لامبير السائس في الباحة يكيل الشعير بمكيال من خشب ، وبدأ الطفلان يشرحان له معاً ما يريدان منه وهما يلهثان ، فلم يفهم لامبير منهما شيئاً ، وظن أن كارثة قد وقعت في القصر ، ولكن لحقت بهما السيدة ريان وأعلمته بما تريد ، فانفجر ضاحكاً .

صوفي :

– هيا يا عم لامبير ! اترك الشعير الآن ، وأسرع إلى السوق ، نريد الحمار قبل موعد الغداء .

لامبير :

– ولكنني لا أستطيع أن أجد الحمار فوراً ، وليس هو بيضة دجاجة نبحث عنها في الخم ، ولا بد من السؤال أولاً عن حمار يُباع ، وينبغي لكم حمار وديع المعشر ، بطيء الخطو ، لا يعض ولا يرفس ، ولا يجري مسرعاً ، ولا يحرن بعناد ، يمشي إذا طلبت منه ، ويقف إذا زجرته .

صوفي :

– آه يا رب ، هل هذه صفات حمار ؟ اشتر لنا أول حمار تصادفه ، وكفى !

لامبير :

– آسف لا أشتري أول حمار أصادفه ، ولا أريد أن يعضك أو يرفسك ، وأنت ما تزالين في مقتبل العمر وزهرة الصبا .

صوفي :

– لا تخف ! سيجعله بول أحكم الحكماء ، إنه طفل صبور ، وقد استطاع أن يروضني ، فهل يعجزه حمار ؟

بول :

– لا أريد حماراً عنيداً ، يعض ويرفس ، ويكفيني ما لاقيت منك !

السيدة ريان :

– هيا يا أولاد ! اتركوا الأمر للعم لامبير ، فهو خبير ، وسوف يبذل كل ما في وسعه ليجد حماراً يناسبكم !

بول :

– والعربة الصغيرة ، أين يمكننا أن نجد عربة صغيرة .

لامبير :

– لا تهتم لذلك يا ولدي ! سأطلب من النجار أن يصنع لكما واحدة كما ترغبون ، وبانتظار ذلك سأعيركما عربة الكلاب فإني لا أستخدمها الآن .

بول :

– شكراً لك يا عم ! هذا رائع .

صوفي :

– هيا يا عم لامبير ! اذهب في الحال !

السيدة ريان :

– اتركي له الوقت اللازم ليكيل الشعير ، ولا يستطيع أن يتركه في الباحة فتعبث به الطيور والماشية .

وما زال بول وصوفي يستعجلانه حتى أنهى كيل الشعير في ربع ساعة ، وانطلق في أنحاء المنطقة باحثاً عن الحمار ، وحسبا أنه سيرجع فوراً ومعه الحمار ، فجلسا في الطريق ينتظرانه ، ومن حين إلى حين يتشوفان لعلهما يريان العم لامبير راكباً حماراً . ومرت ساعة ، فوجدا أن الانتظار ممل .

بول :

– ما رأيك يا صوفي أن نعمل في الحديقة بانتظار عودته ؟

صوفي :

– أفضِّل انتظاره ها هنا .

بول :

– لقد سئمت الانتظار ، وكدت أنام من الملل .

صوفي :

– قد يرجع ومعه الحمار ولا نراه .

بول :

– لا أظنه سيرجع قريباً .

صوفي :

– بلى سيرجع حالاً ، وسوف ترى .

بول :

– حسناً .. لننتظر بعض الوقت ، ولكن هذا شيء ممل .

صوفي :

– اذهب أنت وسأبقى هنا وحدي .

بول :

– ما رأيك أن نتنــزه قليلاً ؟ فمن الغباء الانتظار هنا ، وحين يعود لامبير ومعه الحمار ، فسوف يناديننا ، وإذا لم يعد فلا جدوى من الانتظار .

صوفي :

– اذهب إذا شئت ، فأنا لا أمنعك !

بول :

– هل غضبت ؟ حسناً .. إلى اللقاء يا آنسة صوفي .. سنلتقي مساءً .

صوفي :

– مع السلامة .. يا قليل التربية ، يا عديم الصبر !

بول :

– إلى اللقاء أيتها الفتاة المهذبة الصابرة !

وهجمت عليه صوفي لتوسعه ضرباً ، ولكنه توقع منها هذا ، فجرى بأقصى سرعته وهو يضحك ، والتفت فرآها وقد حملت عصا ، فهرب منها واختبأ بين الأشجار .

وتوقفت صوفي لاهثة ، ورمت بالعصا وحمدت الله لأنها لم تلحق به ، وفكرت : لو ضربته وعلمت أمي لما اشترت لي حماراً وعربة ، ولكنه ولد مثير للأعصاب .

جلست صوفي أمام مدخل القصر تنتظر لامبير حتى حان موعد العشاء . وكانت متعكرة المزاج حين دخلت الغرفة ووجدت بول .

بول :

– هل تسليت جيداً ؟

صوفي :

– على العكس فقد أصابني السأم ، ولامبير هذا لا يوجد رجل أغلظ منه ، وهل هي صعبة مسألة شراء حمار ؟ .

في تلك الآونة طرق الباب ودخل لامبير ، وهتف بول وصوفي فرحاً :

والحمار ؟ هل اشتريت الحمار ؟

لامبير :

– آسف يا آنسة صوفي ، لقد بحثت في المنطقة كلها ولم أجد حماراً .

صوفي :

– آه .. يا رب ! يا للمصيبة ! وماذا سنفعل الآن ؟

لامبير :

– لا تبكي يا آنسة ، سأذهب غداً إلى السوق ، وإذا لم أجد حماراً مناسباً سأمضي إلى سوق الدواب في المدينة فقد أجد جحشاً .

بول :

– وماذا نفعل بالجحش ؟ نحن نريد حماراً لا جحشاً .

لامبير :

– كنت أظنك أعلم من ذلك ؟ أليس الحمار هو الجحش ؟

صوفي :

– عجيب ! وهل الجحش والحمار سواء ؟

لامبير :

– كلما كبر الإنسان ازدادت معلوماته ، فأضيفي إلى معلوماتك أن الجحش هو الحمار الصغير ، وسأمضي من صباح الغد الباكر إلى السوق لأبحث عن هذا الجحش ، إلى اللقاء يا آنسة صوفي !

وأسف الطفلان لهذا الانتظار الطويل ، وأمضيا صباح الغد في انتظار عودة لامبير ، وقالت لهما السيدة ريان :

– إن الأمور تسير هكذا دائماً ، فلا يمكن للمرء أن ينال ما يريد فوراً . ووافقاها على قولها ، ولكنهما كانا يطلان كل خمس دقائق من النافذة ، فيخيب أملهما ، وفجأة نهض بول واقفاً ، وقد سمع نهيق حمار من بعيد ، وقال :

– صوفي .. اسمعي .. صوت حمار .. لعله لامبير !

السيدة ريان :

– لعله حمار عابر يرعى العشب على الطريق .

صوفي :

– ماما هل يمكننا الذهاب لنرى إن كان لامبير ومعه الجحش .

السيدة ريان :

– ماذا معه ؟

صوفي :

– الجحش .

السيدة ريان :

– الجحش ؟ ما هذه اللغة التي تستعملينها ؟ لماذا تسمين الحمار جحشاً .

صوفي :

– هكذا يدعوه السيد لامبير ، وقد دهش لنقص معلوماتي في تسمية الحمير .

السيدة ريان :

– السيد لامبير رجل ريفي وهو يستخدم كلمات أهل الريف ، ولكن لا تنطقي بهذه الكلمات .. المهم اذهبا لتريا إن كان قد جاء ، ولكن لا تعبرا سياج المزرعة ، فالطريق العامة خطرة .

وانطلقا مسرعين حتى مدخل المزرعة ، وكم كانت فرحتهما عظيمة حين أبصرا لامبير يسير بطيئاً ، وهو يجر وراءه حماراً برسنه .

وقفز الطفلان فرحاً وهما يهتفان :

– الحمار ! الحمار ! شكراً لك يا عم لامبير ، إنه حمار قوي !

قال بول :

– ويبدو وديعاً !

قالت صوفي : هيا لنخبر ماما .

لامبير :

– اركب فوق ظهره إذا أردت يا بول ، واركبي وراءه أنت يا صوفي ، وسوف أجره من رسنه .

صوفي :

– ألا تخشى علينا من السقوط ؟

لامبير :

– لا ، ما دمت معكما ، ولكنه جحش وديع .

وامتطى الاثنان ظهر الحمار ، ودخلا على هذه الهيئة إلى المزرعة دخول الفاتحين ، وتوجهت السيدة ريان إلى لقائهما ، وتفحصت الحمار جيداً ، ثم ساقوه إلى الإسطبل بحفاوة بالغة ، وأعد له لامبير فراشاً وثيراً ، وملأ بول وصوفي معلفه بكمية كبيرة من الشعير ، وجلسا يتفرجان عليه وهو يأكل ، وكان ممكناً أن يلبثا هناك حتى المساء ، لولا أن نادتهما المربية لتناول الغداء .

من الغد ربطا الحمار إلى العربة الصغيرة ، وملآها بالتراب ، وأصص الأزهار وما أرادا نقله إلى الحديقة ، وتعلم بول كيف يمهد له

فراشه ، وينظف جلده ، ويعد له علفه ، وكانت صوفي لا تقل عنه براعة في هذا المجال .

اشترت لهما السيدة ريان سرجاً صغيراً ليركبا الحمار في نزهتهما ، فكانا أسعد المخلوقات ، ورافقتهما المربية بادئ الأمر ، ولكن حين تبين أن الحمار وديع كالحمل ، سمحت لهما السيدة ريان بالتجول وحدهما .

ذات يوم ركبت صوفي الحمار ، وحثه بول على الإسراع بضربات خيزرانته ، فحرك أذنيه الكبيرتين ولكنه لم يسرع ، فقالت صوفي :

– توقف عن ضربه ، سوف تؤذيه .

بول :

– الخيزرانة صغيرة ، ولا تؤلمك أنت لو ضربتك بها ، ولا يمشي إذا لم أضربه .

صوفي :

– لدي فكرة ، لو كان لدينا مهمازان لأسرع في سيره .

بول :

– يا لها من فكرة ! ولكن ليس لدينا مهمازان أولاً ، ثم إن جلد الحمار سميك لا يحس بوخز المهمازين .

صوفي :

– فلنحاول .. ماذا نخسر ؟

بول :

– وأين نجد المهمازين ؟

صوفي :

– سأشك في حذائي دبوسين ، وسيكونان مثل المهمازين .

بول :

– فكرة رائعة ، هيا نبحث عن دبوسين كبيرين .

وطلبا من المربية دبوسين ، فأعطتهما إياهما ، وهي تظن أن صوفي سوف تستخدمهما لرتق ثوبها ، أو لأمر شبيه بذلك .

قالت صوفي :

– الأفضل أن نمضي مع الحمار إلى الغابة ، حيث نطلق الحمار ليرعى ، ونصنع نحن المهمازين كما يفعل كبار الرحالة أثناء الراحة .

ثقبت صوفي عقب حذائها بصعوبة كبيرة ، ثم ثبتت فيه الدبوس ، وأمسك بول بالحمار ، وساعد صوفي على امتطائه ، فأعلنت صوفي عن انطلاقها بضربة قوية من عقب حذائها ، فهرول الحمار هرولة منتظمة أدخلت الفرحة على قلب صوفي ، فضربته ضربة ثانية فجرى جرياً سريعاً أدخل الخوف على قلبها ، فتمسكت بالرسن ، ثم تمسكت برقبة

الحمار ، وقد ضمت ركبتيها بكل قوتها ، وكلما شدت قدميها آلم الدبوس الحمار ، فزاد من سرعته ، ثم رفس الهواء بقائمتيه الخلفيتين ، ورمى صوفي على مسافة عشر خطوات ، ولبثت على الأرض ذاهلة ، وجرى إليها بول خائفاً وساعدها على النهوض ، كانت ملوثة بالوحل وقد تمزق ثوبها ، وملأت الخدوش ركبتيها وراحتيها ، وجرح أنفها .

قالت وقد علت الكآبة وجهها :

– ماذا ستقول ماما ؟ وكيف نجيبها حين تسألنا عن سبب سقوطي ؟

بول :

– نقول لها الحقيقة ، ليس أمامنا حل آخر .

صوفي :

– لا ، يجب ألا تذكر لها الدبوس .

بول :

– وماذا ستقولين لها إذن ؟

صوفي :

– لا أدري .. سأقول إن الحمار هرول وسقطت ، هذا كل شيء .

بول :

– ولكنك تعلمين أن الحمار وديع ، وما كان ليهرول لولا الدبوس .

صوفي :

– ولكن إذا ذكرنا الدبوس غضبت أمي ، وأخذت منا الحمار .

بول :

– أقول لك .. إنه من الأفضل قول الحقيقة ، في كل مرة تكذبين فتعرف عمتي الحقيقة ، وتعاقبك أشد عقاب .

صوفي :

– حسناً ، ولكننا لسنا مضطرين إلى ذكر الدبوس .

بول :

– لا ، أنت مخطئة .

صوفي :

– ستقول مثلما أقول ، ولن تذكر الدبوس ، أليس كذلك ؟

بول :

– اطمئني ، أنت تعلمين أني لا أريد لك التوبيخ والإهانة .

وجعلا يبحثان عن الحمار فلم يجداه ، فقال لها بول إنه رجع وحده إلى البيت . وذهبا إلى البيت سيراً على الأقدام ، وما كادا يقتربان من المزرعة حتى سمعا نداء السيدتين ريان وأوبير ، ثم أبصراهما تجريان نحوهما :

– ماذا حدث يا أولاد ؟ لقد رأينا الحمار يهرول وحده ، وقد انقطع سير سرجه ، وخفنا أن يكون أصابكما مكروه .

صوفي :

– لا لم يحدث شيء .. لقد سقطت عن الحمار ، هذا كل ما في الأمر .

السيدة ريان :

– طيب ، وكيف حدث هذا .

صوفي :

– ركبت ظهر الحمار ثم لا أدري لم بدأ يهرول ويجري بأقصى سرعته ، ثم يركل بقدميه ؟ فسقطت وانخدشت أطرافي ، هذا كل شيء .

السيدة ريان :

– هذا مريع ، لايبدو على الحمار أنه شرس ، بل هو وديع كالحمل ! هل كنت حاضراً يا بول ؟

بول :

– طبعاً ، ولكني كنت بعيداً وراءها ، وصوفي على ظهر الحمار .

السيدة أوبير :

– هذا مفهوم ، ولكن ماذا حدث ؟

صوفي :

– لا ريب أنه اشتهى أن يجري .. هذا كل شيء .

السيدة أوبير :

– لا أظنه يشتهي الجري دون سبب ، فهذا أمر غريب .

وذهب الجميع إلى البيت ، كانت صوفي في غرفتها تساعدها المربية على غسل وجهها وأطرافها والعناية بخدوشها وتبديل ثيابها ، ونظرت إليها السيدة ريان جزعة وقالت :

– لقد سقطت سقطة مؤلمة ، وأحمد الله لأنك لم تكسري عضواً من أعضائك .

في تلك اللحظة صرخت المربية ألماً .

السيدة ريان :

– ما بك ؟ هل آذيت نفسك ؟

المربية :

– آه .. يا لها من فكرة رائعة ! انظري سيدتي إلى هذا الاختراع .

وعرضت على السيدة ريان حذاء صوفي الذي نسيت أن تنــزع الدبوس من عقبه .

السيدة ريان :

– ما معنى هذا ؟ وكيف وجد الدبوس طريقه إلى حذائك ؟

المربية :

– لا أظنه سعى إلى الحذاء من تلقاء نفسه ، فالجلد سميك في هذه الناحية !

السيدة ريان :

– صوفي .. ماذا يفعل الدبوس هنا ؟

صوفي :

– لا أدري ، لم أره من قبل .

السيدة ريان :

– هل يُعقل أن تلبسي حذاءك ولا تحسي بهذا الدبوس الكبير ؟

صوفي :

– نعم ، يا ماما ! لم أحس به ولم أره !

المربية :

– ليس صحيحاً ما تقولين يا صوفي ، لقد ساعدتك على لبس الحذاء هذا الصباح ولم يكن الدبوس فيه ، ستظن أمك أني فتاة مهملة ، هذا فظيع !

فاحمر وجه صوفي وارتعد صوتها ، فأمرتها أمها أن تقول الحقيقة :

– إذا لم تقولي لي الحقيقة سألت بول ، ولن يكذب علي .

ولم يتردد بول في قول الحقيقة حين سألته عمته ، إذ كان ولداً صادقاً لا يحب الكذب ، فقال :

– نعم يا عمتي ، إنه المهماز الذي يدفع الحمار إلى الجري .

فالتفتت إلى صوفي وقالت لها :

– لقد كذبت علي ، وعاقبك الله بما يكفي من الخدوش ، وأما عقابي لك فهو حرمانك من ركوب الحمار شهراً كاملاً .

وتركت صوفي دامعة العينين .

ونفذت السيدة وعيدها ، على الرغم من توسلات صوفي في الأسابيع التالية .

الفصل التاسع عشر

العربة الصغيرة

بعد حين من الزمان ، إذ كانت صوفي محرماً عليها ركوب الحمار ، طلبت من بول أن يربطه إلى العربة لتتجول بها ، فقال لها :

– فكرة جيدة ، ولكن هل تقبلها عمتي ؟

– اذهب فاسألها ! إني لا أجوز على مخاطبتها !

وافقت السيدة ريان على طلب بول ، ولكن بشرط أن ترافقهما المربية ، فأزعج هذا الشرط صوفي وقالت :

– إنها مملة ، فهي تخاف من ظلها ! ولن تسمح لنا بالجري سريعاً !

بول :

– لا يجوز أن نجري سريعاً . عمتي منعتنا من هذا !

صوفي :

– كل شيء ممنوع الآن على صوفي !

بعد نصف ساعة كان الحمار مربوطاً إلى العربة ينتظر أمام الباب ، وانطلقت بهما العربة ، ولكن ظلت صوفي كئيبة مقطبة الجبين ، وحاول بول إضحاكها وممازحتها ، فلم تستجب له ، فقال لها :

– لقد سئمت منك .. وجهك مقلوب كوجه القرد ، وأنفك في الهواء كأنك ملكة أزيحت عن العرش ، ولا شيء يرضيك ، سأعود إلى البيت ، تنـزهي مع وجهك الكئيب ، فقد سئمت رؤيتك .

ورجع بالعربة إلى طريق المزرعة ، وكانت صوفي شامخة الجبين كأنها أهينت في صميم كبريائها ، وحين وصلوا أرادت أن تنـزل ، فعلقت قدمها بطرف ثوبها ، وسقطت على الأرض ، وسارع بول إلى مساعدتها ، لم تصب صوفي بأذى ، ولكن أثر في نفسها خوف بول عليها ، فانفجرت بالبكاء ، وقال لها بول :

هل تأذيت يا صوفي ؟ اعتمدي على كتفي ، سأنقلك إلى البيت ، هل أنت قادرة على السير ؟

صوفي :

– لا تخف يا عزيزي بول ، فأنا لا أبكي من الألم ، وإنما أبكي لأني كنت شرسة في معاملتك ، وأفسدت عليك نزهتك .

بول :

– هذا لا يستأهل البكاء وأمامنا نزهات كثيرة ، فلا تأسفي .

ولكن كلامه زاد من بكائها ، حتى قال لها :

– إذا لم تكفي عن البكاء فسوف أبكي معك أيضاً ، وهذا لا يليق بي ، وستكون نهاية باكية لهذه النـــزهة .

ورأت صوفي الدمع يترقرق في عينيه فآلمها حزنه وكفكفت دمعها ، وبدأت تواسي بول وتخفف عنه مصيبته ، وحين انتبها إلى غرابة الموقف ، انفجرا ضاحكين ، وصعدا إلى غرفتهما حتى وقت العشاء .

من الغد اقترحت صوفي على بول نزهة جديدة ولكن بلا دموع ، فوافق على اقتراحها مبتسماً ، واعتذرت المربية عن مرافقتهما لأنه ينبغي لها غسل ثياب صوفي ، وأما السيدة ريان والسيدة أوبير فقد عزمتا على زيارة السيدة فلورفيل في قصرها الذي يبعد عدة كيلومترات ، وقالت صوفي :

– ما العمل إذن ؟

قالت السيدة ريان :

– اسمعي يا صوفي ! لو كنت واثقة من حسن تصرفك لتركتك تتنـــزهين وحدك ، ولكن تخطر على بالك دوماً أفكار غريبة ، أخشى عليك منها .

صوفي :

– لا تخافي يا أمي ، أؤكد لك أني لن أبتكر أي فكرة هذا اليوم ، والحمار وديع ، ولا خطر علي من هذه النـــزهة .

السيدة ريان :

– لست خائفة من هذا الحمار المسكين ، ولكن خوفي منك أن تنخسيه بدبوس فتنقلب العربة .

بول :

– لن نعود لمثلها أبداً يا عمتي ! وأنا مذنب مثلها لأني ساعدتها على ثقب الحذاء وإدخال الدبوس .

السيدة ريان :

– هيا .. تنـــزها بالعربة ولكن لا تخرجا من المزرعة ، ولا تسيرا على الطرق ، ولا تسرعا كثيراً .. مفهوم ؟

وبعد دقائق كان الحمار مربوطاً إلى العربة مستعداً للمسير ، وكادا يهمان بالركوب حين أبصرا ولدَيِ البستاني عائدين من المدرسة ، فسألهما الولد الأكبر سناً ، واسمه أندريه :

– هل تتنــزهان بالعربة ؟

بول :

– سنذهب حالاً ، هل تأتِي معنا ؟

أندريه :

– ولكني لا أستطيع أن أترك أخي الصغير .

صوفي :

– فليأت معنا أخوك .

أندريه :

– شكراً لك يا آنسة .

وصعد الأطفال الأربعة إلى العربة ، وطلبت صوفي من بول أن يسوق في الدور الأول ، وتخلت عن هذا (المجد) خوفاً من فكرة جديدة تخطر لها .

وقالت :

– سأسوق بعد قليل حين يتعب الحمار .

تجول الحمار ساعتين بهؤلاء الأطفال ، يهرول تارة ويجري تارة أخرى ، وقد أثقله جر العربة التي تحمل أربعة عفاريت ، وبلغ به التعب مبلغاً حتى تباطأ في سيره ، فكان بول يضربه فلا يفعل شيئاً سوى أن يحرك أذنيه الكبيرتين ، ولم يعد يستجيب لصراخ صوفي به .

أندريه :

– إذا أردت أن يسرع الحمار بنا ، فما عليك سوى أن تقطعي قضيباً من الشوك ، وتضربيه به .

صوفي :

– فكرة جيدة ! لعلها تدفع هذا الكسول إلى الجري ! .

ونزل أندريه من الغابة وكسر غصناً قوياً من أغصان الشوك ، فقال بول : اسمعي يا صوفي ، لقد منعتك عمتي من وخز الحمار .

صوفي : طبعاً ، ولكن الشوك لا ينخس مثل الدبوس ، ووخزات الشوك لا تؤثر فيه مثلما تفعل ضربات السوط ، وهي لم تمنعك من ضربه بالسوط .

وانهالت على الحمار تضربه بقضيب الشوك ، فأسرع قليلاً ، ولما رأته قد استجاب لضربها ، ضربته ثانية وثالثة ، فانطلق يجري وهي تقهقه بأعلى صوتها كالمجنونة ، وقد أمسك الأطفال بعضهم ببعض ، وما زال

الحمار يجري حتى اصطدمت العجلة بكتلة مرتفعة من التراب ، فاختل توازن العربة وانقلبت ، وسقط الأطفال أرضاً ، ولم تكن العربة مرتفعة فلم يصب أحدهم بأذى ، ولكن الحمار لم يتوقف عن جريه ، وسحب العربة وراءه فتحطمت أجزاؤها ، وطارت شظايا .



ورجع ولدا البستاني إلى بيتهما ، وتوجه بول وصوفي إلى طريق القصر .

كانت صوفي خائفة وسألت بول :

– ماذا ستقول ماما الآن ؟

بول :

– لا أدري ، ولكن الذنب ذنبي أيضاً ، إذ كان ينبغي لي أن أمنعك من ضرب الحمار بقضيب الشوك ، وأكون أكثر حزماً معك .

صوفي :

– لم أكن أظن أن قضيب الشوك سيؤذيه ، وماذا ستقول ماما ؟ هاهي ذي قد أقبلت ، إني أسمع صوت العربة ، لنسرع إلى البيت قبل أن ترانا .

ولكن كانت العربة أسرع منهما فسبقتهما إلى البيت ، ووصلا لاهثين ، يتصبب العرق منهما ، وقد غطت الخدوش أيديهما وأرجلهما ، وتمزقت ملابسهما ، فقالت السيدة ريان وهي تهبط من العربة :

– لقد حلت مصيبة .. أنا متأكدة من هذا !

صوفي :

– ماما .. إنه الحمار !

السيدة ريان :

– كنت قلقة عليكما طول مدة الزيارة ، فمن الذي أثار الحمار ؟ وكيف أصبحتما على هذه الحال ؟

صوفي :

– لقد انقلبت العربة ، وأظنها تكسرت لأن الحمار لم يتوقف .

السيدة ريان :

– هل أنت متأكدة أنها ليست إحدى اختراعاتك التي أطارت عقل الحمار ؟ ولم تجبها صوفي بادئ الامر ، ولكنها قررت ألا تكذب ، فقد كانت عاقبة الكذب عليها وخيمة دائماً .

قالت السيدة ريان :

– حسناً يا أولاد ، منذ أن اشترينا هذا الحمار والمصائب تتهاطل علينا ، لذلك سأزيل سببها من أساسه ، وسأتخلص من هذا الحيوان .

صوفي :

– أرجوك يا ماما .. لا تبيعيه .. لن نعيدها ثانية .

السيدة ريان :

– لن تعيدا الحماقة نفسها حتماً ، ولكن ستجدان حماقة مختلفة ، وأحذركما بأني من أول فكرة تخطر لصوفي ، أبيع الحمار ، وبالمناسبة أين الحمار ؟

ولم يجبها بول ولا صوفي ، فهما لا يعرفان شيئاً سوى أنه هرب منهما ، وهو يجر العربة ، فدعت السيدة ريان السائس لامبير ، وطلبت منه أن يبحث عن الحمار ، فرجع بعد نصف ساعة وهو كئيب الوجه ، مقطب الحاجبين .

لامبير :

– آسف لكما يا بول وصوفي ، فقد حلت كارثة بهذا الحمار .

بول وصوفي :

– أي كارثة ؟

لامبير :

– حينما هرب الحمار اجتاز المزرعة وكسر السياج وهرب إلى الطريق العام ، وكانت عربة ركاب كبيرة مقبلة من الناحية الثانية بأقصى سرعتها ، فصدمته وكادت خيولها تدهسه بأقدامها ، ولم تنقلب العربة لحسن حظ ركابها ، ولكن الحمار فارق الحياة .

فبكى بول وصوفي كثيراً ، وأخذت كل أم ولدها واعتنت به وواسته حتى كفا عن البكاء ، وانتهى ذلك اليوم نهاية حزينة .

بعد زمان طويل كانت صوفي كلما رأت حماراً تذكرت حمارها الوديع الذي تسببت في موته لحماقتها ، ولم تجرؤ أبداً أن تطلب من أمها شراء حمار آخر .

الفصل العشرون

السلحفاة



لقد لاحظنا أن صوفي تحب الحيوانات كثيراً ، وكان لديها حمار وسنجاب وقط ، وتمنت أن يكون لديها كلب ، ولم تحقق لها السيدة ريان رغبتها ، خوفاً من مصائب جديدة ، فسألت أمها :

– أي حيوان يمكنني الحصول عليه ، ما عدا الكلب ؟ أريد حيواناً غير مؤذٍ ، ولا يطارد الطيور ، ولا يستطيع الهرب ، وتسهل العناية به ورعايته .

السيدة ريان :

– لا تنطبق هذه الشروط إلا على حيوانين : الحلزون والسلحفاة .

صوفي :

– آه .. السلحفاة ! إنها لطيفة ، ولا تستطيع الهرب .

السيدة ريان :

– حتى لو فكرت بالهرب تستطيعين اللحاق بها .

صوفي :

– نعم يا ماما ، اشتري لي واحدة !

السيدة ريان :

– وماذا تفعلين بالسلحفاة ، فهي حيوان غبي بشع المنظر وثقيل الحركة ، ولا يمكنك أن تعقدي صداقة معها .

صوفي :

– لا يا ماما .. أنا متأكدة أني أحبها ، والسلحفاة مسلية جداً .

السيدة ريان :

– لم أكن أدري أن السلاحف مسلية ، ولكنك متمسكة بهذا الحيوان ، حسناً ، سأشتري لك سلحفاة ، ولكن بشرطين ، الأول ألا تتركيها تموت جوعاً ، والثاني أن أتخلص منها من أول حماقة ترتكبينها .

صوفي :

– نعم .. نعم .. ومتى أحصل عليها ؟

السيدة ريان :

– سأحاول الحصول عليها خلال عدة أيام .

صوفي :

– هذا رائع يا ماما ، غداً يصل بول ليقضي أسبوعين معنا ، وسوف نلهو كثيراً .

من الغد حين وصل بول ذكرت له صوفي أنها تنتظر الحصول على سلحفاة .

فقال لها :

– سلحفاة ؟ ما هذه الفكرة الغريبة ؟ وماذا تفعلين بهذا الحيوان البشع ؟

– سنطعمها الخس ، ونرتب لها فراشها ونتجول معها ، ونلهو بها كثيراً ، وسوف ترى .

فاقتنع بول بكلامها وظل ينتظر وصول السلحفاة بمثل الشوق الذي تنتظرها به صوفي .

بعد ثلاثة أيام وصلت السلحفاة ، وكانت ضخمة ، أكبر من طبق الطعام ، ثقيلة الوزن ، لونها بشع يميل إلى الصفار الملوث ، وقد أخفت رأسها وقوائمها ، وصاح بول :

– يا رب .. ما أبشع هذه السلحفاة !

– بل أجدها جميلة .

قالت صوفي هذا لكي تعارض بول ، ولكنها لم تجدها جميلة أيضاً .

بول :

– وجهها جميل ، وابتسامتها جذابة !

صوفي :

– أنت تهزأ من كل شيء تراه .

بول :

– وما يعجبني فيها خاصة ، مشيتها الرزينة ، وقوامها الرشيق .

صوفي :

– اسكت ، وإذا لم تكف عن الاستهزاء بسلحفاتي .. لهوت بها وحدي .

بول :

– خذيها ، والعبي بها وحدك ، سوف تحرمينني من حديثها الشيق .

وتمنت صوفي لو تهجم على بول وتضربه ، ولكنها تذكرت أنها الوسيلة الوحيدة لكي تصادر السلحفاة منها ، فاكتفت بنظراتها الغاضبة ترمي بها بول وهو يضحك .

وأرادت أن تحملها لتضعها بين الحشائش ، ولكنها ثقيلة ، فتركتها ، وهب بول لنجدتها ، واقترح عليها أن يتعاونا على حملها داخل منديل ، يحمله كل واحد من طرفه ، ووجدت صوفي فكرته جيدة .

حملاها إلى المرج ، وتركاها وهما ينتظران ما ستفعله ، بعد حين أخرجت السلحفاة رأسها وقوائمها بحذر شديد ، وبدأت تأكل الحشيش .

فاندهش الطفل لرؤيتها ، وقالت صوفي :

– أرأيت ؟ ليست سلحفاتي غبية ولا مملة .

– ولكن اصدقيني القول .. هل تجدينها جميلة ؟

صوفي :

– أعترف لك أنها بشعة الوجه ، بهذا المنقار الغريب .

بول :

– وهل رأيت قوائمها ؟ إن فوقها حراشف وأظافر .

مرت عشرة أيام ولم يحدث خلالها شيء لافت للنظر ، إذ كانا يطعمانها الخس والحشيش ، وقد صنعا لها بيتاً من علبة قديمة فرشاها بالتبن ، وكانت السلحفاة راضية بمصيرها .

ذات يوم خطرت لصوفي فكرة .

كان الجو حاراً ، وفكرت صوفي أن السلحفاة تحتاج إلى أن تنعش نفسها بماء البركة ، فنادت بول وطلبت منه أن يعومها في ماء البركة .

بول :

– هل أنت متأكدة أن السلاحف تحب الماء ؟

صوفي :

– بالتأكيد ، حتى إن بعضها يعيش في الماء ، كما أن القريدس يعيش في الماء ، وهو يشبه السلحفاة كثيراً ، والمحارات ألا تعيش في الماء ؟

بول :

– والله لم تخطر لي هذه الفكرة ببال !

وهكذا أمسكا بهذه السلحفاة البائسة التي كانت نائمة تحت أشعة الشمس ورمياها في الماء ، وحينما أحست ببرودة الماء ، أخرجت قوائمها فجرحت يدي بول وصوفي ، فتركاها تسقط إلى قاع البركة .

وخاف الطفلان فأسرعا إلى البستاني واستنجدا به ، فشمر ساق بنطاله ودخل البركة وأخرج السلحفاة التي كانت تتلوى ، ووضعها

بجانب النار حتى تجف ، ولكن السلحفاة أدخلت رأسها وقوائمها ولم تبد حراكاً ، فقال لهما البستاني :

– إن الماء لا يناسبها ، ولذلك لن تأكل ، ولعلها مريضة .

صوفي :

– ولكن بعض السلاحف تعيش في الماء .

البستاني :

– السلاحف البحرية ، نعم ! ولكن ليست كل السلاحف بحرية .

بول :

– وهل تظنها مريضة ؟

البستاني :

– لا أظنها مريضة ، بل هي مشرفة على الموت .

وهتفت صوفي :

– آه يا رب !

فقال لها بول :

– لا تصدقي كلامه فهو لا يعرف عن السلاحف شيئاً ، واتركيها في الشمس حتى تستعيد قوتها .

بقيت السلحفاة تحت أشعة الشمس ، فلم تخرج رأسها ولا قوائمها ، وقدمت لها صوفي الخس فلم تذقه ، فقال لها بول :

– لنحملها فوق المرج ، لعلها تخاف من حركتنا حولها .

وعادا إليها في اليوم التالي ، فوجداها على حالتها الأولى ، بل انتشرت منها رائحة نتنة ، فقال بول :

– أظنها ميتة .

فجلسا ينظران إليها جامدين كتمثالين ، ومرت بهما السيدة ريان وقالت :

– ماذا تفعلان هنا ؟

قالت صوفي :

– إنها السلحفاة يا ماما .

وانحنت السيدة ريان وسألت :

– ما بها هذه السلحفاة ، ولكن رائحتها نتنة ، إنها ميتة .

بول :

– هذا ما كنا نخشاه ، وكيف ماتت ؟ كانت تأكل كل يوم ، فلا أعرف سبب موتها .

صوفي :

– أظن أن الحمّام هو الذي قتلها يا ماما !

السيدة ريان :

– الحمّام ؟ هل غسلت السلحفاة ؟ إنها إحدى أفكارك العبقرية يا صوفي ! ولن أشتري لك حيواناً بعدها ، كأنك عدوة هذا الجنس من المخلوقات ، وكلما اشتريت لك ، أو جلبت لك حيواناً مات بين يديك ، أو بسببك شر ميتة ! لامبير ! احمل هذه السلحفاة وارمها داخل حفرة .

كانت السلحفاة إذن آخر حيوان لهت به صوفي ، وحين طلبت من أمها أن تشتري لها فأراً أبيض ، رفضت طلبها ، فاكتفت صوفي باللهو مع بول .

الفصل الواحد والعشرون

الرحيل



هنا تتوقف حكايات أحزان صوفي ، والواقع أنه قد أصاب حياة صوفي وبول تغيير كبير ، وذلك أن السيد فيتشيني وهو شقيق السيدتين ريان وأوبير ، قد توفي في أميركا وترك ثروته الطائلة لشقيقتيه ، واتفق الجميع على الرحيل إلى أميركا للحصول على هذه الثروة ، والبقاء هناك سنة أو سنتين .

كان الرحيل مؤسياً ، وكان الجميع يبكون بما فيهم صوفي وبول وأمهما ، وكذلك الخدم وسكان القرية الذين جاؤوا لوداعهم .

سرعان ما نسي بول وصوفي هذا الوداع الحزين ، حينما صعدا إلى ظهر السفينة التي ستنقلهما إلى أميركا ، واستمتعا بهذه الرحلة كثيراً ، وقال بول :

– حين أكبر سأصبح بحاراً .

فأجابته صوفي :

– لن تكون بحاراً .. إني أمنعك أن تكون بحاراً ، ولكنك ستبقى بجانبي ، هل سمعت ؟

فقال بول ضاحكاً :

– حسناً .. سأبقى بجانبك ما حييت ..

الفهرس

روايات عالمية للناشئة

أحزان صوفي

كونتيسه دي سيغير

RABIE

H. FARHAT